روايات رومانسية عالمية
عبير

ساره سيل

نبع الحنان



مكتبة زهران



ساره سيل

نبع الحنان

مكتبة زهران

روايات رومانسية عالمية
عبير

نبع الحنان

علاقات
غريبة كلها حقد وكراهية تحكم قصر
(بانسيون) الذي ورثه دومنيك بكر اشقائه. لكن يبرز
الى الوجود حفيد جديد في العائلة لم يحسب حسابه. يحضر مع
والدته كليوباترا ويعيش مع عميه كارهاً دومنيك الكبير وميالاً الى الأخ
الأصغر بيريغرين الذي يستغل حب الصغير له للحصول على ادارة الثروة.
جنون الارث يحكم علاقات صعبة بين دومنيك وكليوباترا التي تسعى للزواج
منه وتقيم علاقة مع بيريغرين علها تفوز في النهاية. فجأة وبناء على دعوة من
كليوباترا تحضر لورا الرقيقة والطاهرة الى القصر لتربية الطفل الصغير
لكن تفاجأ بالصراع الدائر في الخفاء بين شياطين ثلاثة تتحكم بهم
رغباتهم . السيد الجشع دومنيك يرفض الزواج من كليوباترا. لكنه
يسعى لتبني الطفل . كليوباترا تنصح لورا بالابتعاد عن
دومنيك وعدم تسليم قلبها له . فهل تسبب طهارتها
ورقتها خراباً في القصر ؟

مكتبة زهران
جمهورية مصر العربية
١٥ شارع الشيخ محمد عبده - خلف الجامع الأزهر
ت : ٥٩٤١٩٥٥ - موبايل : ٠١٢٢٣٧٨٦٤١٨

العنوان الاصلي لهذه الرواية بالانكليزية
TO CATCH A UNICORN

١- الشيطان في القطار

كاد القطار أن يفوتها لأنها أخطأت في حساب الوقت الذي تحتاج إليه لتنتقل في سيارة التاكسي من منطقة أورلز كورت إلى محطة بادينغتون للسكة الحديد. تركها الحمال الكئيب مع حقائبها في أحد الممرات، فحملت لورا حقائبها وتوجهت نحو القطار تفتش عن مكان فارغ داخل الحافلات المزدحمة التابعة للدرجة الثانية. كانت تتعثّر بالحقائب وبالمسافرين، وراحت تنتقد نفسها لرعونتها وعدم مهارتها. كلّما جابهتها الأمور العملية، حتى السهلة منها، كأخذ سيارة تاكسي أو قطار مثلاً، كانت لورا كالضائعة. خيّل إليها أنها تسمع صوت ابنة عمتها كليوباترا وهي تقول: «أنت دائماً تائهة وشاردة الذهن، يا لورا!».

وكليوباترا ليست مخطئة، هي التي بحماستها وثقتها بنفسها، لم يسبق لها

أن فشلت في معالجة مشكلة تجابهها، صعبة كانت أم سهلة. لا شيء يعكر روحها العملية وحضور ذهنها.

« عفواً... بالإذن... عفواً... ».

لم تكف لورا عن التفوّه بهذه الكلمات بينما كانت تحاول المرور بين الركاب المزدحمين. أخيراً، فقدت توازنها وسقطت فوق حقيبة في وسط الطريق صاحبها شاب متكىء في وقاحة على باب حافلة شبه فارغة. فصرخت باستغراب :

« آه ! يا إلهي ! هذا ما كان ينقصني ».

فانحنى الشاب لمساعدتها على النهوض، شعره الأسود المشعث ووجهه المتيقظ والمتوقد وبشرته السمراء التي تذكر بشمس البلدان البعيدة، كلّها تدل على أنه قرصان أو مهرّب.

قال في لهجة تسحق القلب :

« اعذريني لأنني تركت حقيبتي في وسط الطريق ! ».

أجابت وهي مغتاظة من سخافة زلتها :

« كدت أكسر قدمي ».

لمس الرجل ركبتها فابتعدت عنه في سرعة وقالت :

« كلا. لا أعاني من شيء ».

بدا وكأنه يسخر أكثر فأكثر من ردّات فعلها فأعلن قائلاً :

« لديك ثلاث علامات نمش على أنفك ».

أحسّت لورا أنه بدأ يهزأ بها، فلم تبتسم له، لكنها قالت في صوت متعب :

« نعم لدي ثلاث علامات نمش على أنفي. وأعتقد أنّ وجهي مليء بالغبار وأن شعري مشعث... كما أشعر بعدم قدرتي على الاستمرار في البحث عن مكان فارغ داخل القطار ! ».

اقترح عليها وهو يشير برأسه إلى الحافلة التابعة للدرجة الأولى :

« إذن ما عليك إلاّ أن تجلسي هنا ».

« لكنني لا أحمل بطاقة درجة أولى ».

« وماذا إذن ؟ ».

فتح الباب وانحنى أمامها ضاحكاً وتابع يقول :

« لا يهم ! أنا أتفاهم مع المراقب، فانني لا أخشى العراك ».

ولمجرّد رؤية ملامحه التي تدلّ على حب المغامرة، والتفكير في ضرورة الوقوف خمس ساعات، صدقته وتركت نفسها تجلس في المقعد المريح وجلس الرجل الغريب في مواجهتها وقال :

« تعاسة البعض تؤدي إلى سعادة الآخرين ! كنت قد قررت الاستسلام للضجر، فجئتِ في الوقت المناسب لتسليني. إلى أين ذاهبة ؟ ».

« إلى ميرينبورث ».

« عليك إذن أن تأخذي قطاراً آخر في محطة ترورو. هل تعرفين المنطقة ؟ ».

أجابت لورا في إشارة سلبية من رأسها. إن الرجل أمامها يتصرف في ألفة مشبعة بالسخرية. نظراته النافذة بدأت تزعجها وارتاحت لوجود راكبين آخرين غيرهما يطالعان الصحف.

وبدا على الرجل الغريب أنه فهم ما يدور في رأسها، فسألها في الحال :

« ممَّ تخافين ؟ ».

احمرت لورا فأضاف قائلاً :

« انها موهبة بدأت تزول ».

سألته لورا في سذاجة :

« أي موهبة تقصد ؟ ».

« موهبة الاحمرار. أنت ما تزالين صغيرة ».

احتجت قائلة :

« عمري ٢٠ سنة. وإني أعيل نفسي ! ».

« صحيح ؟ ماذا تعملين ؟ ».

« أنا بائعة زهور ».

« هذا لطيف جداً ! إنّه يليق بك تماماً. أتخيلّك بين الأزهار. أنت نفسك زهرة، ووجهك الجميل لا شك أنه يجعل الورود شاحبة من

الغيرة ».

كان يسخر منها حقاً. فاحمرّ وجه لورا من جديد، لكن هذه المرّة من الغضب.

« لديك نظرة شاعرية تجاه مهنتي ! هل أنت معتاد على التفوّه بالتفاهات أمام البنات اللواتي لا تعرفهن ؟ ».

قال في وقاحة :

« نعم. وفي معظم الأوقات، أنجح في ذلك. أن وجهك قذر وشعرك مشعث ! ».

تناولت لورا حقيبة يدها وبحثت فيها عن مشطها وأدوات الزينة والمرآة. وهو كان يراقبها في مرح ووقاحة. وراح يتأمل وجهها المثلث، الشاحب، وعينيها الكبيرتين وشعرها الأسمر الذي يرفض مجاراة الموضة والمنسدل في كل حول عنقها النحيف. إن لورا ممشوقة القامة، لكن معطفها الرمادي لا يتناسب مع قامتها ولا حتى مع بشرتها.

قالت فجأة :

« هل انتهيت من مراقبتي ؟ ».

بدا الرجل وكأنه فوجىء. بهذا الهجوم المباشر تشنه هذه الفتاة الخجولة ظاهراً. لكنها أكدت له بلهجة جعلته يضحك، إذ قالت :

« إن كليوباترا تعتقد أنني لا أعرف أن أتدبّر أمري، لكن، في رأيي، على المرء أن يقبل ذاته كما هي ».

« تعجبني صراحتك، يا آنسة. . . ! ».

حذّرتها العمة فلورا مراراً من اللقاءات المفاجئة والقدرية غير أنها، من جهة ثانية، علّمتها اللباقة والتهذيب، فأجابته بهدوء :

« اسمي لورا سميث ».

« ومن هي كليوباترا ؟ ».

« ابنة عمتي. اني ذاهبة الى الريف الغربي كي أساعدها في الاهتمام بابنها الصغير ».

« هل تسكن ميريتبورث ؟ »

« كلا. إنما ميريتبورث هي المحطة القريبة من القرية التي تعيش فيها في

الوقت الحاضر. إنها تسكن في الريف في منزل يدعى « بانسيون ».

لاحظت لورا ملامح اهتمام في عيني الرجل. وكادت أن تستعلم بدورها عن اسمه عندما دخل المفتش إلى المقصورة. ولما أراد أن يطبق القانون راح الرجل يسخر منه ويشتمه في عنف كما يتصرف أبناء الأزقة. فانزعجت لورا من هذا التصرف وأسرعت إلى دفع الغرامة، رافضة في عنف المال الذي كان يمده إليها في وقاحة.

وبعدما غادر المفتش الغاضب المقصورة راحت لورا تلومه في مرارة جارحة لتصرفه المقيت وهي تقول :

« الظاهر أنّ ما حدث الآن أفرحك ! هل تهوى ازعاج الناس ؟ »

« ولمَ لا ؟ »

ألقى نظرة سريعة على المسافرين الآخرين اللذين كانا يستغربان تصرفه الوقح. فأسرعا من جديد إلى التحديق بالجرائد. الوضع كان مضحكاً. ولم تعد لورا تستطيع المحافظة على جدّيتها، فإذا بها تنفجر ضاحكة. وفي الحال بدأ الرجل يستلطفها. وأدرك أن رفقتها ستساعده فعلاً على ملء ساعات السفر الطويلة. فقال :

« تعالي، سأدعوك إلى تناول الغداء معي. »

صرخت وهي تتذكّر نصائح العمة فلورا :

« آه، لا ! »

« لا تكوني تافهة وحمقاء، اننا الآن صديقان ! »

كانت لورا تتضوّر جوعاً ولم يكن في وسعها أن ترفض عرضه. وبينما كانت جالسة في مطعم القطار وجهاً لوجه مع هذا الرجل الغريب، أخذتها نشوة المكان ونشاط الخدم ولطفهم، هي التي لم تتعوّد على مثل هذا الجوّ.

كان رفيقها مهتماً بها كما يجب، حريصاً على ملء كأسها كلما فرغت. انه فضولي جداً يريد أن يعرف المكان الذي ستتجه إليه لورا، فقال :

« أنت إذن ستهتمين بولد في ميريتبورث ؟ »

« ليس في ميريتبورث، بل في « بانسيون ». المربية التي حجزتها ابنة عمتي اعتذرت في اللحظة الأخيرة، إذ خافت أن تدفن حالها في مكان خال كلياً من أي وسائل التسلية، هل تفهم ما أقوله ؟ وبما أنّ المحل الذي كنت

اعمل فيه أعلن إفلاسه، فقد اقترحت عليّ كليوباترا أن آتي إلى « بانسيون » وتمضية بعض الوقت هناك قبل البحث عن عمل آخر. إن إقامتي هناك بمثابة عطلة. »

قال الرجل بعدما قطّب حاجبيه :

« الاهتمام بولد صغير، تعتبرينه إجازة ! »

كيف عرف أنه ليس في إمكان أحد أن يرفض طلب كليوباترا؟ في كل حال، ان الاهتمام بنيكولا ليس مهمة صعبة. قالت :

« أنت لا تفهم. »

« اذن اشرحي لي. »

فرحت لورا لكون الرجل الغريب يصغي إليها في انتباه. ولم تجد أي انزعاج في التحدّث وفمها مليء بالطعام والشراب، فقالت :

« بعد وفاة والدي، تربيت عند عمتي فلورا. وبما أن والدي كليوباترا كانا يقطنان الهند، فقد وضعاها في مدرسة داخلية في انكلترا، لكنها كانت تمضي العطل المدرسية في منزل العمة فلورا. وكنت أكنّ لها إعجاباً كبيراً لا حدود له. كنت ما أزال صغيرة وهي في سن المراهقة. وأجدها باهرة الجمال، واثقة من نفسها وشديدة التكلف. . . »

« وماذا بعد ؟ »

« تزوجت من رجل يدعى ترويلوس تريفاين. لم أتعرّف إليه لأن. . . »

قاطعها الرجل من جديد وقال في استغراب :

« تريفاين ؟ آل تريفاين الذين يقطنون في بانسيون ؟ »

« نعم. هل تعرفهم ؟ »

« سمعت عنهم الكثير. »

فرحت لورا بهذا الخبر وسألته :

« إذن يمكنك أن تخبرني عنهم ! هل ما زالوا يعتبرون أنّ القراصنة هم جزء من أسلافهم ؟ »

هذا السؤال المطروح بجدية واضحة أدى الى انفجار الرجل الغريب في ضحك ساخر، فملأ كأس لورا وقال :

« في الوقت الحاضر، أنا الذي أصغي اليك. »

بدأت لورا تفقد تركيزها، فقالت في غير وضوح :

« في الواقع، ليست هناك أشياء كثيرة أقولها. في بانسيون، كان يعيش ثلاثة أبناء مع والدهم العجوز الشرير الذي كان يملك مقلعاً. . . أو ميدانا للخيل. لا أعرف بالضبط. وهذا الأب القوي أرغم ثاني أولاده ويدعى ترويلوس على عقد خطبته من فتاة اختارها له. وذات يوم - لا أعرف تفاصيل القصة - هرب ترويلوس إلى اوستراليا مع ابنة عمتي. »

صمتت لورا ثم انصرفت الى الطعام الذي بدأ يبرد، فأكمل الرجل الحديث عنها وقال :

« ومات العجوز الشرير جاهلاً تماماً أنه أصبح جداً. فورث كبير أبنائه المقلع وترويلوس، ذو العادات الغريبة مات في حادث سيارة تاركاً أرملة وابناً صغيراً كان مفاجأة للجميع. »

فتحت لورا عينيها الواسعتين وقالت في خيبة أمل :

« أنت تعرف كل شيء. »

قال الرجل في ابتسامة :

« اني ابن المنطقة والعجوز زكاري ومشاجراته العائلية مشهورة جداً في المنطقة. »

لم تقتنع لورا كلياً بما قاله وخيّل إليها أنه لا يقول الحقيقة، فقالت :

« لا أعتقد أن آل تريفاين عائلة بسيطة وعادية. »

« كيف يكونون بسطاء وأسلافهم قراصنة ؟ »

اعترفت في خجل قائلة :

« أخشى أن أكون قد اخترعت لقب القراصنة. أحب الاساطير وآل تريفاين يجعلونني أحلم في. . . »

دخل القطار في نفق، فتوقفت لورا عن الكلام وراحت تفكر في هذه الأسماء الثلاثة : دومنيك، ترويلوس وبيريغرين الذين كانوا يهدهدون أحلامها منذ فترة طويلة. وكانت كليوباترا تسخر دائماً من مخيلتها الفائضة، وأكدت لها مرّة في سخرية أن ترويلوس كان كل شيء ما عدا كونه مغامراً. أما دومنيك وبيرغرين فليسا سوى نسخة طبق الأصل عن والدهما. لا

يعرفان سوى احصاء ثروتها. لكن في الوقت الحالي، هل يعترفان بحقوق ابن كليوباترا ؟

ولما خرج القطار من النفق المظلم، سألت لورا :

« دومنيك، هل هو رجل جيد ؟ »

« السلطان القرصان ؟ سوف تجدين الجواب بنفسك متى تعرفت إليه ! »

« لماذا تدعوه بالسلطان القرصان ؟ عندما كتبت له كليوباترا وأعلنت أن له ابن أخ يبلغ الخامسة من العمر، اقترح عليها في الحال أن تأتي إلى بانسيون. هذا يدل على حسن نيته. »

بدا الرجل الغريب فرحاً بهذا التفكير وفي سرعة اختلط وجهه في عقل لورا بالوجه الذي كانت تتخيله كلّما تصورت في ذهنها أبناء تريفاين الثلاثة. سألها :

« هل تريدين المزيد من الشراب ؟ »

« كلا، شكراً. عندما أشرب، أتحدث كثيراً. لو رأتني العمة فلورا لفوجئت بي. »

« يجب ألّا تقولي لها شيئاً. »

« لقد ماتت. »

« اذن، تعيشين وحدك ؟ »

« عندما عادت كليوباترا من أوستراليا، حاولنا أن نتقاسم شقة واحدة، لكننا فشلنا وعدت إلى المسكن الذي كنت أعيش فيه وهو كناية عن غرفة صغيرة حقيرة. وفي المساء كنت أحرس نيكولا عندما تخرج كليوباترا للسهرة. انه ولد لطيف وآمل أن يعيش في بانسيون حياة مريحة ومستقرة. وإذا كان عمه وقع في حبه... »

قاطعها الرجل في نفاد صبر غير منتظر وقال :

« لا تتكلي كثيراً على عاطفة آل تريفاين ! »

« بأي حق تسمح لنفسك أن تصدر أحكاماً عليهم ؟ »

ندمت فجأة على ما قالته وأرادت الاعتذار، لكنها حملت حقيبة يدها وقالت :

« سأعود إلى مكاني. وأشكرك على هذا الغداء، يا سيد... »

لكن الرجل الغريب لم يطلعها على اسمه.

كانت الشمس قد شارفت على المغيب عندما عادا إلى مكانيهما. المسافران الآخران كانا يغطان في نوم عميق ويشخران. فنظر إليهما الرجل الغريب في قرف واختفى في الممر. ولم يعد الّا عندما وصل القطار إلى محطة تروروو. لورا المتأثرة بعقلية الخوف التي فرضتها عليها العمة، خافت أن تضل القطار الثاني، لكنها شعرت بارتياح عندما علمت أن الرجل الغريب سيأخذ القطار نفسه. استقلا معاً القطار الثاني فسألته :

« هل أنت ذاهب أيضاً إلى ميريبورث ؟ »

« كلا. سأهبط من القطار في المحطة السابقة. وأنصحك ألّا تخطئي في الهبوط في المحطة المقصودة والّا فسيأخذك القطار إلى آخر البلاد... وربما إلى الجحيم حيث تلتقين الشيطان نفسه. أنت الآن في كورنويل وأحياناً تقع هنا حوادث غريبة... »

« ما تقوله هراء أو هذيان ! »

غير أنّ لورا لم تستطع أن تمنع نفسها من الارتجاف. فلاحظ الرجل هذا الأمر وقال هازئاً :

« لست في وضع يؤهلك للعيش بين القراصنة ! »

كان النعاس قد غلب عليها، لذلك لم تستطع مجادلته. ولما كفّ عن اثارتها، أغمضت عينيها فقال فجأة :

« ألست خائفة من أن تكوني وحدك معي في هذه المقصورة الفارغة ؟ »

أجابته من دون انفعال :

« من زمان وأنا انتظر حجة لاستعمال جرس الانذار. »

قال في جفاف بعدما شعر بعدم اكتراث الفتاة به :

« في هذه الحال، لن أتيح لك فرصة القيام بذلك. »

نامت لورا في انزعاج وكانت تستيقظ في انتفاضة كلما توقف القطار في المحطات. وخلال تلك اللحظات القصيرة، كانت تجد في رفيقها ملامح شريرة ومؤذية وترى قرنين مكان حاجبيه العريضين الأسودين. عمتها فلورا كانت تحدثها مراراً عن الشيطان.

توقف القطار مرّة أخرى، فنهض الرجل الغريب وقال :

« سأتركك هنا، يا آنسة سميث. عليك أن تترجلي في المحطة التالية ولا تدعي نفسك تذهبين إلى الجحيم ! »

همست تقول :

«وداعاً. . . وشكراً على الغداء. »

قال وهو يختفي كالشبح :

« هذا ليس وداعاً، سنلتقي مرّات أخرى ! »

يا لهذا الشبح ! الشيطان ! ولامت لورا مخيلتها الخصبة وغابت في نوم عميق. وفي نومها، أصبحت رحلتها كابوساً يعبره القراصنة الذين كانوا يتحولون إلى شياطين. وفجأة حدثت صدمة قوية. ألم واضح نبّه لورا أنها لم تعد تحلم. فتوقف القطار فجأة في محطة ميرينبورث ووقعت حقيبتها على رأسها. كبتت لورا دموعها وخوفها وحاولت فتح المقصورة، من دون جدوى.

فتح أحد الركاب الباب وحمل الحقيبة وساعدها على النزول من القطار. وتساءلت لورا ما إذا كانت قد استيقظت تماماً. ألم تصل إلى الجحيم ؟ ألن يظهر الشيطان أمامها الآن ؟

قالت لنفسها في صوت مرتفع : « انت مجنونة ! »

قال صوت قريب منها :

« هل تتكلمين وحدك ؟ »

انتفضت لورا واكتشفت في قربها رجلاً غريباً يشبه كثيراً الرجل الغريب الذي رافقها في رحلتها، كما يشبه شيطان أحلامها. فصرخت تقول :

« من أين جئت ؟ »

أجاب الرجل بعدما قطّب حاجبيه الأسودين مثل قرني شيطان الجحيم :

« يا لهذه الطريقة الغريبة في التحدّث مع رجل غريب ! من تتصورينني؟ من أنا في نظرك ؟ »

« الشيطان ! »

نطقت بهذه الكلمة غصباً عنها.

٢- في عرين القراصنة.

تأملت لورا الرجل تحت ضوء مصباح كهربائي، فرأت أنه يكبر الرجل الغريب سناً. وهو أقل جاذبية منه، لكن الاثنين يتمتعان بسمات القراصنة. . . ارتعدت لدى رؤيتها الكدمة في خده الأيسر التي تغطي زاوية فمه في طريقة غريبة. وخيّل الى لورا أنه الشيطان. ولما ناداها باسمها الصغير، لم تستغرب. الا يتمتع الشيطان بمواهب وقدرة تفوق الطبيعة ؟

قال الرجل :

« لا تنظري إليّ هكذا. لن اصطحبك إلى الجحيم، إنما سآخذك إلى بانسيون. »

« آه ! أنت إذن من آل تريفاين ؟ »

« بالطبع ! أنا دومنيك تريفاين. »

« لقد ذهبت بعيداً في قصص القراصنة... والشيطان... »
طريقتها في الكلام أقلقت الرجل فسألها :
« هل أنت في حالة جيدة ؟ »
في اللحظة نفسها، تمسكت به لأنها شعرت أن قدميها ستخوران وقالت :
« كلا. لست في حالة جيدة... وقعت حقيبتي على رأسي. ولا شك أني أصبت بصدمة... »
« افهمك الآن أكثر. لقد زعزعتك الصدمة وهزتك. »
« نعم. كنت نائمة وأحلم. وتخيلت الرجل الذي كان جالساً قبالتي، كأنه الشيطان بعينه. يا إلهي، كم تشبهه... أعني كم تشبه الرجل لا الشيطان... »
قال دومنيك تريفاين في تعبير ساخر :
« لا شك أنك التقيت بشقيقي، إذ كان من المفروض أن يصل في القطار نفسه. اعتقد أنه هبط في إحدى المحطات. »
وفهمت لورا سبب التشابه بين الرجلين، فشعرت فجأة بانزعاج غريب. كيف خيل إليها أن الرجل الذي سيستضيفها في منزله هو الشيطان !
« نعم، انه... أعني أخاك، هبط في المحطة السابقة. »
واكتشفت في هول أنه هزأ منها طيلة الرحلة.
« لا شك أن ليبريغرين موعداً هناك. هل يعرف من تكونين ؟ »
« آه، نعم ! لقد كنت حمقاء وأخبرته سيرة حياتي. خطفني من الممر عندما سقطت على حقيبته. ثم أصرّ أن أبقى معه في المقصورة لأني لم استطع العثور على مقعد فارغ، وبدأنا نتحدث. ثم دعاني إلى الغداء معه. »
قال دومنيك تريفاين ساخراً :
« يبدو أن حظك سيء مع الحقائب ! ما رأيك بأخي ؟ معظم النساء يجدنه جذاباً. »
لم تكن لورا في مزاج هادىء لترد على هذا النوع من الأسئلة. حتى الآن

لم تر من آل تريفاين إلاّ التسلية بوجودها. فأظهرت رغبتها في الرحيل. وراحت تتأمل أضواء المرفأ الصغير. ثم قالت :
« أشعر بالغربة... »
قال لها رفيقها وهو يسير في قربها :
« أنت الآن في كورنويل. »
انه ممشوق القامة، يحمل حقيبتها بدون أية صعوبة.
راحت تسرع في مشيتها كي تتبعه فقال :
« هل أسرع في المشي بالنسبة إليك ؟ »
« اعتقد أن أخاك على حق. لست مهيأة للعيش بين القراصنة والأسياد الجشعين. »
« لا شك أن أخي رسم لك لوحة غريبة عن بانسيون. »
اعترفت لورا قائلة في خجل :
« القراصنة من اختراعي. لا يمكنني أن أكف عن التفكير بأن أسلاف آل تريفاين هم من القراصنة القدامى. »
« والأسياد الجشعون ؟ »
« هذا التعبير صدر عن أخيك. ولست أفهم جيداً ماذا يعني بذلك. »
أجاب دومنيك تريفان في مرارة غير منتظرة :
« إنه يقصدني، يا آنسة سميث. يجب أن تعرفي أن الامتيازات التي يتمتع بها الابن الأكبر تثير دائماً الغيرة. »
وضع حقيبة لورا في صندوق سيارته ولما جلس قربها اعتذرت قائلة :
« الظاهر أنني أبدو لك فتاة حمقاء بكل ما للكلمة من معنى. أليس كذلك، يا سيد تريفاين ؟ »
نظر إليها في إمعان وفي عينيه تسامح مرح كما عند أخيه. فوجدته مقيتاً في مسحته المتعالية وفجأة شعرت برغبة ملحة في البكاء. وبينما كان يدير المفتاح ليشغل المحرك، تغيرت ملامح وجهه وظهر الحنان في تعابيره وسألها :
« هل تشعرين بألم في رأسك ؟ »
هذا الاهتمام غير المنتظر أدى بها إلى الانفجار بالبكاء. كان رأسها

يؤلمها فعلاً وكانت تلوم نفسها لانجرافها التافه في قصص القراصنة والشيطان. وبطريقة غريزة التقت بوجهها المملوء دمعاً على كتف دومنيك تريفاين. . .

فقال لها :

« اخرجي كل ما فيك من ألم وتوتّر، يا آنسة لورا سميث. أن كتفي سند انساني، برغم أنك تعتبرينني الشيطان نفسه. »

« ليس تماماً. ربما لأنني كنت حائرة ومشوشة. »

« لا تبدين لي أنك مربية أطفال. »

نعومة ابتسامته تناقض تجعيدة فمه التي أحدثتها الكدمة في خده. فاعترضت لورا وهي تمسح دموعها، إذ قالت :

« لست مربية أطفال. جئت إلى هنا، فقط من أجل مساعدة كليوباترا على الاهتمام بنيكولا، بعدما تخلفت المربية المنتظرة عن المجيء. وبما أني من دون عمل، فقد لبيت عرضها. لقد سبق أن جلست بقربه عدة مرّات. أنه ولد لطيف عندما لا يشعر بأنه مُهمَل. »

« كلا. لقد عبرت خطأ عن أفكاري. لكن كليوباترا لا يمكنها أن تبقى دائماً قربه. فهي تحب المرح والتسلية. »

« صحيح ؟ »

قطّب دومنيك حاجبيه وندمت لورا في الحال لما قالته، إذ نسيت أنها تتحدّث إلى شقيق زوج كليوباترا، الرجل الذي عليها أن تعطيه فكرة جيّدة عنها كي يعترف بحقوق نيكولا الشرعية. في كورنويل، النساء الأرامل لا يفكرن بالمرح والتسلية حتى ولو مات أزواجهن منذ أكثر من سنة. أدركت أنه من الضروري أن تضيف شارحة وتقول :

« يجب ألّا تلوم كليوباترا. انها امرأة جميلة، شابة، جذابة ومليئة بالحيوية. ولا يمكنها الاستمرار نهائياً في البكاء على الماضي، أليس كذلك ؟ »

شعرت لورا أن وجه دومنيك تقلّص وتجهّم وهو يعلن في لهجة باردة :

« لكن أرملة أخي تعتبر أن الماضي مدين لها بالكثير. »

« ليس لها، لابنها ! انه ابن اخيك. أليس لنيكولا الحق في أن يُعتبر عضواً من عائلة تريفاين ؟ »

« يا إلهي، وصلت لتوك وها أنت تحاولين إصدار الأوامر ! يبدو أنك على معرفة واسعة بحياة زوجة أخي الخاصة. »

« طبعاً. انها ابنة عمتي. »

« ابنة عمتك ؟ »

أمام هذه الدهشة تساءلت لورا ما إذا كانت كليوباترا قد تعمّدت تجاهل إخبار دومنيك بهذا التفصيل البسيط. ربما لأنها كانت تنوي أن تدع المربية تتناول طعامها في المطبخ بينما تخول لنفسها التمتع برفقة آل تريفاين وحدها ؟ هذا النوع من التفكير لا يتعارض مع شخصيتها بل يؤكدها. وأرادت لورا أن تتكلم عن الأمر مفصلاً، لكن دومنيك تريفاين أقلع بسيارته في سرعة معلناً في صمت إقفال الموضوع.

ولما أضاءت سيارة مواجهة وجهه القاسي، فكرت لورا بابنة عمتها التي، برغم سحرها ومهارتها، لا يمكنها أن تفرض بسهولة ارادتها على مثل هذا الرجل. وأمام هذه الفكرة غطت لورا في نوم عميق، وخيّل إليها أنها في سباق لا نهائي عبر الطرقات الضيقة والمتعرجة في قلب الجبل.

بهرت لورا عندما دخلا إلى بهو المنزل الذي يدعى « بانسيون ». اللهب يطقطق في الموقد ويعكس لمعاناً على الزجاج والواجهات المليئة بالتحف القديمة وعلى مجموعة آلات الوقاية المعدنية كالدرع والخوذة، ذات الأشكال المختلفة غير الواضحة في الظلام. وعلى الجدران وضعت شعارات الشرف والترس وتذكارات الصيد كجلود الأسود أو رؤوسها. ثريا ضخمة معلقة قرب السقف تضيء الغرفة بصعوبة. وفي الخارج الكلاب تعوي والأمواج ترتطم بالصخور على الساحل القريب والريح تعصف في النوافذ.

سألها دومنيك تريفاين :

« هل تشعرين بأنك تدخلين إلى عرين القراصنة ؟ »

وافقت لورا المندهشة من دون أن تعي أنه يسخر منها.

أضرم النار ثم أضاف :

« نحن فخورون بهذا البهو، يا آنسة سميث، لكن باقي المنزل سيخيّب أملك. هذه القاعة هي الأثر الوحيد لعظمة والدي المجنونة. لو كان ما زال

حباً لكنت اعجبت به لأنه كان فخوراً بأسلافه العظماء، فقط من أجل أن يدهش الناس. »

قالت لورا متأسفة لسماع ضحكة دومنيك العالية :

« ربما هذا صحيح. »

« أسلافنا لم يكونوا من القراصنة، لكنهم لا شك كانوا لصوصاً متسكعين وقطاع طرق. كمعظم العائلات المنحدرة من هذه المنطقة. كان اسلافنا ولا شك أشخاصاً مجازفين يتصدون للقوانين. هل يروقك أن يكون أسلافنا قطاع طرق، يا آنسة سميث ؟ »

تعبت لورا من اعتبارها تافهة فأجابته بعدائية :

« في الوقت الحاضر لا أريد إلّا احتساء فنجان شاي ساخن ! »

لكنها تراجعت عن عدائيتها وأضافت في لهجة مهذبة :

« إذا كان ذلك لا يزعجك. »

ابتسم دومنيك تريفاين وساعدها على خلع معطفها. ولمست يداه عنقها للحظة فشعرت لورا بهما، إذ كانتا ساخنتين وقويتين.

« تعالي إلى الدار. سترينه أقل جمالاً وأكثر راحة. ان ابنة خالك في انتظارك. »

تبعته لورا في ارتياح. لا شك أن كليوباترا مستفرح بها لا محبة بها، بل من أجل أن تعهد إليها بنيكولا. لكن هذا غير مهم، إذ أنها تفضل رؤية انسان قريب على رفقة آل تريفاين المضطربة.

ان قاعة الاستقبال تدهش حقاً بالمقارنة مع البهو الذي يشبه المتاحف. هنا الأثاث عادي واللوحات خالية من الفردية. غير أن لورا أعجبت بالجوّ الحميم وحرارة الجوّ الصادرة عن اشتعال الحطب في المدفأة التي تشبه مغارة من حجر الصوان.

قالت كليوباترا في كسل وهي تتثاءب :

« مرحباً... »

تبدو وكأنها في منزلها، ممددة على أريكة قرب النار. والذي يراها قرب طاولة صغيرة مليئة بالزجاجات والكؤوس، يقول إنها تعيش هنا دائماً. والحقيقة أنه لم يمضِ اسبوع على وجودها في بانسيون...

« تبدين مرهقة، يا حبيبتي المسكينة ! آمل أن تكوني قادرة على الاهتمام بنيكولا. أما أنا، فلم أعد قادرة على تحمل الوضع. لو لم تساعدني ميريام... »

« من تكون ؟ »

« ميريام سبارك تخدم عائلة تريفاين من زمان، وتعتبر كأحد أعضاء العائلة. وهي التي ربت بيريغرين بعد وفاة والدته. انها غريبة الأطوار لكنها تحب نيكولا حباً كبيراً. »

سألت لورا وهي لم تعد قادرة على تحمّل الانتظار أكثر لرؤية نيكولا :

« كيف حاله ؟ »

« جيد جداً. وللأسف فهو لا يطاق مع عمه الكبير ولذلك أخشى ألاّ يكون في استطاعته أن يستميل عاطفته ويفوز بحبه. إنني أتكل عليك لترويضه. »

قالت لورا بعدما تذكرت ردّة فعلها عندما لمحت وجهه القاسي والكدمات في زاوية فمه عندما رأته في محطة القطار :

« ان دومنيك لا شك يرعب الأولاد. »

« طبعاً. دومنيك لا يتمتع بسحر بيريغرين. ما رأيك فيه ؟ »

« لا يمكنني أن أقول شيئاً الآن. »

قالت كليوباترا في لهجة غير مبالية :

« لقد سكبت لنفسي كأساً منذ قليل، أرجو ألاّ تلوموني على هذا التصرف. أنت المسؤول. أشعر هنا وكأنني في منزلي. »

« لكن أنت هنا في منزلك، إذا كنت تستطيعين أن تتحملي حياتنا الروتينية. »

« إنني أشكرك وخاصة باسم نيكولا. فسنعتبر من الآن وصاعداً أن بانسيون بمثابة منزل لنا. »

أزاحت ساقيها الطويلتين الجميلتين لتفسح في المجال لدومنيك أن يجد مكاناً فارغاً يمكنه أن يحتله قربها.

احتست لورا الشاي في صمت. وكانت تتابع الحديث من دون قصد، إذ تعوّدت أن تنسى ابنة عمها وجودها كلّما كانت بصحبة رجل ما.

فجأة قالت كليوباترا في استغراب :
« لورا، حبيبتي، إني اراهن أنك في رحلة الى القمر ! بماذا تحلمين ؟ »
قال دومنيك وهو يتأمل لورا في اهتمام :
« يا لسوء حظها، فقد سقطت حقيبتها على رأسها. هل تشعرين بتحسن الآن، يا آنسة سميث ؟ وبالمناسبة، لماذا أخفيت عني، يا كليوباترا انكما قريبتان ؟ »
« أخفيت عليك ! لكني كنت اعتقد أنك على علم بذلك ! ألم يخبرك ترويلوس أن لدي ابنة خال تدعى لورا سميث ؟ »
« عندما توفي والدي، بعث إليه بعدد من الرسائل لا يستهان به. »
« صحيح ؟ لم يقل لي ذلك، أو ربما لم تصله. كنا نتنقل باستمرار من مكان إلى آخر داخل اوستراليا من دون أن نترك عنواننا. . . وذلك بسبب الديون. . . أنت تفهم قصدي ؟ »
كان دومنيك على اطلاع على تبذير أخيه المسرف، فردّ بابتسامة صغيرة وفي الحال غيّرت كليوباترا الموضوع إذ سألته :
« أين بيريغرين ؟ ربما أخذ القطار ذاته الذي جاءت به لورا. »
أكد لها دومنيك في جفاف :
« بالفعل، لقد سافرا معاً. ولم يرَ بيري أن من واجبه أن يقدم نفسه للآنسة سميث. إنه في كل تأكيد نزل في محطة ما ليرى احدى صديقاته. »
« إنني أراهن أن لورا فعلت العكس وأخبرته سيرة حياتها. إن العمة فلورا على حق ويجب أن تعملي بنصائحها. وبما أنني أعرف بيري تماماً، فانني أقسم أنه جذبك إليه لقضاء الوقت وأنك وقعت في حبائله. »
كانت لورا تنظر إلى ابنة عمتها في اندهاش متسائلة ما إذا كانت كليوباترا هي بالذات متأثرة بسحر صغير آل تريفاين وجاذبيته.
تدخل دومنيك في الحديث وقال :
« بما أن الآنسة سميث انتهت من احتساء الشاي، فبامكانك إذا أردت أن ترافقيها في جولة في المنزل وتدليها إلى غرفتها. »
قالت كليوباترا فرحة من اختياره لها لتلعب دور ربة البيت :
« أرجوك أن تدعوها باسمها : لورا ! »

وبينما كانت الفتاتان تستعدان للخروج من غرفة الاستقبال، فتح الباب بعنف ودخل الكلاب يتبعها شبح امرأة غاضبة تحمل مقلاة وتصرخ في صوت عال :
« لصوص ! شياطين ! أين آموس، يا دومنيك ؟ أين هو ؟ لماذا لا يحبس هذه الكلاب ؟ لقد سرقت اللحمة المعدّة للعشاء. لم أعد أطيق هذا أبداً. . أبداً. »
لورا المرهقة من السفر الطويل أشاحت بنظرها عن الكلاب المفترسة التي تجري وتلتهم ما تبقى من قطعة اللحم. فانتابها الغثيان. لم يقم دومنيك بأي حركة، بل انفجر ضاحكاً :
« هيا أيتها الكلاب، تمتعي بفريستك ! »
احتجت كليوباترا وقالت :
« صحيح، يا دومنيك، انك تتصرف أحياناً على نحو اسوأ من أخيك. أنظر إلى لورا. انها تبدو مذعورة كأنها في منزل للمجانين. »
أجابها في جفاف مظهراً أنه سيد المكان بعدما تبدلت ملامح وجهه :
« يجب على لورا أن تتكيّف إذا ما أرادت أن تعيش معنا. »
اقتربت الخادمة من لورا وقد زايلها الغضب وقالت :
« كيف حالك، يا ابنتي العزيزة ؟ أنت نحيلة جداً وصغيرة، فكيف تكونين مربية أطفال. »
قال دومنيك في جفاف وتقلص :
« حدث سوء تفاهم فيما يتعلق بالآنسة سميث. انها ابنة خال كليوباترا وجاءت تقدم لنا المساعدة وهذا لطف منها. لورا، أقدم لك ميريام سيارك، حورية المنزل. »
مدّت له المرأة يدها العريضة والدسمة. انها في عمر يصعب تحديده. شعرها ناري وقامتها معتدلة ترتدي فستاناً بالياً ومريولاً صغيراً وسخاً.
قالت لورا :
« يعرفني نيكولا جيداً. فلا تخافي عليه مني. »
قال دومنيك :
« طبعاً. وانتِ يا كليوباترا، خذي لورا إلى غرفتها. بينما أتولى حبس

هذه الحيوانات الشيطانية ألا يزال رأسك يؤلمك، يا لورا؟».
أجابت وهي مدينة له بالاهتمام بحالتها :
« قليلاً. »
« ستنامين باكراً هذا المساء وآمل أن يكون كل شيء غداً على ما يرام. »
وبينما كان يطرد الكلاب رأت لورا أن الخادمة تطفىء الأضواء متذمرة.
قالت كليوباترا في الخارج :
« هذه إحدى عاداتها. من يلاحظ تصرفها يعتقد أنها هي التي تدفع الفواتير. »
اعترضت لورا قائلة :
« بما أنها هي التي تقوم بإدارة المكان، فمن الطبيعي أن تهتم بالنفقات. »
لكعت كليوباترا ابنة خالها بطرف كوعها بينما كانتا تصعدان معاً السلالم المؤدية إلى الطابق الأول حيث غرفة نوم لورا.
في اليوم التالي استيقظت لورا مرتاحة تماماً. من الحادثة المزعجة لم يبق سوى رضة بسيطة وتورم في رأسها. في الليل ما ان دخلت الى غرفتها حتى نامت في السرير منهكة من التعب ولم تجد مجالاً لتفحص غرفتها. جلست في سريرها وراحت تتأمل الأثاث القروي غير المتجانس، والمغسلة الرخامية وورق الجدران المعرق والبالي الذي يدل على أنها من عصر ولّى.
وبينما كانت غارقة في تأملاتها دخلت ميريام سبارك حاملة صينية عليها فطور الصباح. ظلّت ميريام توحي بالغرابة حتى مع نور الصباح. شعرها الناري متوهج براق وكانت ترتدي سترة رجالية وتنورة قديمة جداً. أزاحت الستائر في حيوية وعنف وطارت سحابة غبار داخل الغرفة.
« لو أبلغتني ابنة عمتك من تكونين لاخترت لك غرفة مختلفة. لكن هذه الغرفة هي أيضاً مريحة. كلي فطورك قبل أن يبرد ! »
أطاعت لورا، لكن الفطور الذي اجتاز المسافة الطويلة من المطبخ كان قد برد. ولما لاحظت لورا أن ميريام سبارك لا تنوي مغادرة الغرفة سألتها :
« أين نيكولا ؟ كان يجب عليّ أن أنهض باكراً كي اهتم به. »

« لا تقلقي، يا آنسة. الشباب لا يعملون يوم الأحد. »
ما علاقة هذا بنيكولا. غير أن لورا اغتنمت هذه الفرصة لتستعلم مفصلاً عن المؤسسة العائلية، فقالت :
« ماذا يستخرجون من المقلع ؟ »
« الصوان والبلور. دومنيك أفضل مني في التحدث إليك عن هذا. أما نيكولا فلا يتوقف عن المطالبة بمومو. واني أتساءل من تكون. »
قالت لورا محمّرة الوجه بعدما اجتاح قلبها الحنان :
« أنا. لا اعرف لماذا يدعوني هكذا. هل يتفق نيكولا مع عمّيه ؟ »
« يتفق مع بيريغرين وليس مع دومنيك. اعتقد أنه يخاف منه بسبب الكدمة في وجهه. »
« هل تعرض لحادث ما ؟ »
ندمت لورا للحال على تطفلها، لأن ميريام نظرت جانباً كأنها لم تسمع شيئاً. ثم قالت :
« ان بيريغرين يعجب الأولاد الصغار والنساء. وترويلوس كان مثله. أما أنت فلا تشبهين قطعاً ابنة عمتك. انها قوية مثل نساء منطقتنا وإضافة إلى ذلك فهي جميلة جداً ! »
وفي هذه اللحظة مدّت كليوباترا رأسها من فتحة الباب لتستعلم عن لورا. حتى عندما تهمل نفسها كما هي العادة كل صباح، فباستطاعتها أن تظل تتباهى بسحرها وبأناقتها. فسألتها ميريام :
« هل سترافقين الشابين في النزهة ؟ »
« لم يستيقظ بيري بعد. عاد متأخراً الليلة الفائتة. سيقودني دومنيك إلى القرية لابتاع بعض السكائر. وأنت، يا لورا، هل تشعرين بتحسن الآن، وهل تعتقدين أن في وسعك الاهتمام بنيكولا ؟ »
« طبعاً. ما كان يجب على الآنسة سبارك أن تجلب فطور الصباح إلى غرفة النوم. »
قالت الخادمة في صوت مليء بالحنان :
« آه، ان أيام الآحاد لم تعد كما كانت في أيام زكاري. »
خرجت من الغرفة وتنورتها البالية الطويلة تمسح الأرض خلفها. فقالت

لورا مستغربة بعدما انغلق الباب :

« يا لهذه المرأة الغريبة ! »

جلست كليوباترا على طرف السرير وقالت :

« يقال إنها كانت مغنية في أحد النوادي الليلية قبل أن تصبح عشيقة العجوز زكاري. وحسب أقوال بيري، كانت تأمل في أن يتزوجها بعد وفاة زوجته، لكنه لم يبال. وبقيت تعمل كخادمة وتهتم بتربية الأولاد. والآن هي جزء من العائلة. »

« يا للمرأة المسكينة ! »

هذه القصة أحزنت لورا، فسألت :

« كم يوجد من الخدم هنا ؟ »

«ان ميريام تتقاسم العمل مع آموس. إنهما اثنان غريبان. هل رأيت الكلاب مساء أمس ؟ آموس يطلقها من أجل اغاظة ميريام. انه رجل عجوز، فظ ومجنون. لا يكف عن التفوه باللعنات للجميع. ونيكولا لا يخافه. كم هم غرباء الأولاد ! غير أنه قرر أن يتصرف بكراهية مع دومنيك. وبيري لا يفعل شيئاً لتسوية الأوضاع. »

« لماذا ؟ »

« اعتقد أنه يريد أن يضايق أخاه الكبير ببعض الاهانات الصغيرة. كان نيكولا يحب والده حباً كبيراً وبما أن بيري يشبه ترويلوس فإنه لا يجد أية صعوبة من أن ينال ما يريده منه. »

« لا أرى أي ضرر في ذلك. »

« لا تنسي أنه من الضروري استمالة محبة وعطف الأخ الكبير دومنيك، فهو الذي يمسك بزمام الأمور. وأني أتكل عليك في التأثير على نيكولا. في لندن كان يطيعك أكثر مني. حاولي أن تدعيه يحب دومنيك. كما في استطاعتك أن تلاطفي سيد المكان إذا شعرت بالشجاعة الكافية ! »

قالت لورا وهي تنفجر ضاحكة :

« هذه قضية أخرى. »

« هل حدث بينكما شيء عندما اصطحبك من المحطة ؟ »

« لا أبداً. وماذا ستخترعين لي الآن ؟ »

فجأة راحت كليوباترا تتأمل ابنة خالها ذات العينين الواسعتين، وقالت :

« يجب أن تأخذي موعداً مع الحلاق في ميرينبورث لتصبغي شعرك وتجعديه. »

« إن صغير آل تريفاين طلب من أن أبقى كما أنا ! »

انتفضت كليوباترا واقفة وراحت تتفحص ابنة خالها. قطبت حاجبيها وعبست. كيف تجرؤ لورا على الدفاع عن نفسها ! الفتاة الصغيرة التي ظلت خرساء أمام المعجبين بها طول ست سنوات أصبحت الآن امرأة شابة. وفي شقتها في لندن، لم تلاحظ كليوباترا هذا التغيير. هذا الاكتشاف المفاجيء لا يناسبها وهو يضايقها.

نهضت لورا بدورها لتغتسل وترتدي ثيابها. في قميص نومها ما زالت تبدو المراهقة التي لم تعد اياها بالفعل. ان نحافة جسمها وعودها الطري يؤكدان صغر سنها. بينما كليوباترا، تبدو بالعكس، امرأة متفتحة جذابة.

قالت كليوباترا في غيظ :

« إذا كان أبناء تريفاين قد سحروك في هذا الوقت، فانني قلقة جداً لاقامتك هنا. »

أجابتها لورا في لا مبالاة :

« انك تمزحين، أليس كذلك ؟ اننا أبناء تريفاين وأنا ننتمي إلى عالمين مختلفين كلياً. »

لم تقتنع كليوباترا بهذا الجواب. ومن جهتها لم تكن لورا هادئة كما كان يبدو عليها بالفعل. إذ أنها تدخلت في قضية العائلة وهذا شيء لا يعنيها. هل ستعود كما جاءت ؟ بدأت تشعر أنها تختلف قليلاً عن الفتاة الطائشة، التائهة، العصبية التي استقلت القطار في لندن. هل ستستطيع بالفعل العيش مع آل تريفاين ؟

قالت كليوباترا :

« هل ما تزالين حالمة ؟ »

ارتدت لورا مئزرها وجلست أمام منضدة الزينة وقالت :

« أنت على حق. لكن إذا تركتني أعد نفسي، فسأتولى أمر نيكولا بعد

قليل. »

ارتاحت كليوباترا للخدمات التي ستقدّمها لورا مهما كان من أمر الخلاف بينها وتوجهت نحو الباب. ومن العتبة أرسلت اليها قبلة صغيرة وقالت:

« ساعهد به اليك بكل طيبة خاطر. في كل حال، فهو لا يكف من التحدث عن عزيزته مومو. »

٣- الربيع يمر من هنا!

في هذا النهار ما عادت لورا ترى بانسيون غريبة كما كانت تراها بالأمس، لدى وصولها. بدا المنزل صباح هذا الأحد فارغاً. كان نيكولا ينتظر لورا في غرفة كانت في الماضي غرفة الأولاد. في احدى زوايا الغرفة حصان قديم هزاز متروك دلالة على الماضي. وإذا كان من السهل أمام لورا أن تتخيّل بيربغرين عندما كان ما يزال صغيراً يلعب في هذه الغرفة، غير أنها لم تكن قادرة أن تتصور دومنيك منصرفاً الى اللهو. كانت تفضل أن تبقى هنا حالمة، لكن نيكولا كان يريد أن يريها بقية المنزل.

كان يعلن بالتتابع في سذاجة الأطفال:

« هذه هي قاعة الاستقبال... وهذه غرفة الطعام... المكتب... غرفة الردهة. عادة لا يوجد في منازل الناس الاعتياديين غرفة ردهة.

وباتسيون لا تشبه اي منزل آخر. وهذا البهو، أترينه، يا مومو ! إني متأكد أنه أروع من اي مكان آخر ! »

سألته لورا مستغربة :

« هل تحب هذا المنزل ؟ »

« نعم. أحبه. قالت لي امي انني هنا في منزلي. »

لا شك أن كليوباترا على حق. فنيكولا هو من آل تريفاين وعليه أن يعي انتباهه إلى هذا المكان. إنه ما يزال في الخامسة من عمره وبالتالي لا يستطيع أن يفهم حقيقة الوضع، لكنه يفكر في اكتشاف الكنوز الجديدة.

قال للورا وهو يشير إلى تمثال برونزي : « انظري، يا مومو. هل تعرفين ما هو هذا التمثال البرونزي ؟ »

أبدت لورا اهتمامها وسألته :

« كلا. ماذا يكون ؟ »

« انه حصان القارن الخاص بآل تريفاين. والقارن هو حيوان أسطوري في شكل حصان كان الأقدمون يفترضون أنه له قرناً وسط الجبين. وهنا، في هذه الزاوية، قارن آخر، يا لورا. أنظري ! »

وبطرف إصبعها لمست لورا حصان القارن المنحوت من حجارة الصوان المبنية منها المدفأة. انفتح الباب فجأة ودخل بيريغرين تريفاين وقال :

« هل تتأملين شعار العائلة، يا آنسة سميث ؟ لقد قلت لك اننا سنلتقي من جديد ! »

التفتت لورا في سرعة واكتشفت ابتسامة ساخرة تعرفها جيداً. فأجابت في لهجة باردة :

« اني مسرورة لرؤيتك من جديد، يا سيد تريفاين. لو أنك تجرأت وذكرت اسمك وهويتك في القطار لما كنت أزعجتك وأخبرتك قصصاً تعرفها جيداً. »

« لا تغضبي، يا آنسة سميث. فأنا لم اضجر ابداً، ارجوكِ ان تصدقيني. بالعكس، لم يسبق أن سمعت مثل هذه الوقائع. »

لم يتسنَّ للورا أن تتساءل ما إذا كانت هذه الأسرار التي باحت بها يمكنها ان تؤذي كليوباترا، لان نيكولا أسرع نحو عمه وأمسك بطرف معطفه

ليلفت انتباهه وقال :

« هل القارن يشبه الحصان الكبير، يا عمي بيري ؟ »

« طبعاً ويمكن للآنسة سميث أن تمتطيه عندما تكون في مزاج عكر. »

« انها تدعى مومو. »

« إذن، يا مومو، هل اخبرك نيكولا عن أسطورة القارن التابع لعائلتنا ؟ »

لم تستطع لورا أن تكبت ضحكتها، فطلبت من بيرغرين أن يناديها بلقب مومو. وهنا دخل دومنيك إلى البهو تتبعه كليوباترا. وفي الحال راح دومنيك يسأل عن حالة لورا الصحية فأجابته :

« إنني في حالة جيدة. وليس في رأسي سوى أثر تورم بسيط ليذكرني بأن الحقيبة يمكن ان تكون خطرة أحياناً. »

قال حالماً :

« تبدين نحيلة جداً. »

يبدو أن دومنيك مثل أخيه يشك في إمكان لورا تحمّل الحياة الصعبة في باسنيون. فقالت :

« لا يجوز الاعتماد على المظاهر. »

لم تنزعج لورا من أسلوب دومنيك في النظر إليها، كما أغاظها ذلك من بيريغرين، مساء أمس في القطار. فسألت دومنيك :

« هل ان القارن هو بالفعل شعار العائلة ؟ »

ابتسم دومنيك في مرح وقال :

« كلا. انها إحدى نزوات والدي واختراعاته. لقد اشترى هذا التمثال بالمزاد العلني. وطلب من أحد المهندسين أن يحفر له القارن على المدفأة وفي أماكن أخرى من المنزل. وكانت النتيجة سيئة كما تلاحظين. »

ربّت على كتف نيكولا وقال :

« هل أخذت الآنسة سميث في جولة داخل المنزل، يا نيكولا ؟ »

هذه الحركة التي أبداها دومنيك أزعجت الولد الذي تراجع وراح يشد نفسه إلى أمه التي قالت :

« عليك أن تعطي أهمية كبرى لهذا القارن، يا دومنيك. »

قال بيريغرين ساخراً :
« ربما تريدين أن تملك عائلة تريفانين شعار النبالة ؟ »
سئم الصبي هذا الحديث وعاد فجأة ليقف بين عميه.
ولاحظت لورا أنه يشبههما كثيراً.
فسأل الولد :
« هل نلعب لعبة القارن ؟ »
ضحك بيريغرين عالياً وأمره بالجلوس، فقال دومنيك :
« بما أن العم بيري يرفض، فأنا سألعب معك لعبة القارن. »
وبدل أن يفرح ابتعد الولد عنه في خوف، فحمله بيريغرين على ذراعيه ثم وضعه على كتفيه. فقالت كليوباترا في ابتسامة اعتذار موجهة إلى دومنيك :
« يا له من شيطان صغير! »
فوجئت لورا إذ رأت في وجه دومنيك علامات الحزن والكدر.
فقال في صوت جاف :
« لا شك أن الغداء أصبح جاهزاً. »
فقالت لورا :
« هل سيتناول نيكولا الغداء معنا. أم أنه سيتناول طعامه معي في المطبخ ؟ »
قال دومنيك :
« هذا غير وارد. أنت مدعوتنا، وستتناولين الطعام معنا في غرفة الطعام. وأنا شخصياً، لا يزعجني وجود نيكولا معنا، لكن والدته تصرّ على أن يتناول طعامه برفقة مربيته. »
قالت كليوباترا :
« إذن، ستلعب لورا مؤقتاً دور المربية. أنت لا تجدين مانعاً من أن تتناولي الطعام مع نيكولا، أليس كذلك، يا حبيبي ؟ »
قال دومنيك في لهجة لاذعة معلناً مرّة أخرى أنه سيد المكان :
« لكن أنا، أجد مانعاً في ذلك. سيظل نيكولا يتناول طعامه مع ميريام، كما حصل ذلك حتى الآن. هيا يا نيكولا، اذهب إلى المطبخ. »

« كلا. اني أرفض! »
أصرّ دومنيك قائلاً :
« بلى. بيري، أنزله عن كتفيك. »
وفي الحال انزله بيريغرين عن كتفيه فراح الولد يبكي ويصرخ :
« اني أكره عمي دومنيك! اني أكرهه! ».
أسرعت لورا وأمسكت بيد الولد وقالت :
« تعال، يا نيكولا، في سرعة. »
قال دومنيك ببرود :
« انه يعرف الطريق. أنت لست في حاجة إلى لورا، يا نيكولا. »
أطاع الولد مرغماً، فقالت كليوباترا :
« لا نلمه يا دومنيك. كانت تربيته سيئة. وترويلوس وأنا لم نكن نؤدي واجبنا تجاهه تماماً. »
تأبطت كليوباترا ذراع دومنيك وقالت :
« اني أتكل عليك لتحلّ محل الأب الذي فقده نيكولا، خلال إقامتنا في بانسيون. »
توجّه الجميع إلى غرفة الطعام، وبعد قليل أحضرت ميريام طعام الغداء.
لم تعرف لورا بعد الحياة المتقلبة وكثرة الحركة داخل بانسيون. ومقارنة ببقية الأيام، فأيام الآحاد هادئة تماماً. لا صوت ولا ضجة تأتي من المقلع الفارغ. وسكان بانسيون لا يصفقون الأبواب ويحاولون جاهدين ألاّ يصرخوا أو يتكلموا بصوت مرتفع.
بعد الغداء وضعت لورا نيكولا في سريره ثم ارتدت معطفها وقررت الخروج. وقبل ذلك توجهت نحو قاعة الاستقبال لتعلم صاحب المكان عن رغبتها في اكتشاف المكان. فوجدت كليوباترا وحدها، ممددة كعادتها على الاريكة. كانت تدخن ونظرها تائه في اللاشيء.
قالت لورا :
« تذكرينني بهرّ فارسي فاز لتوه بالجائزة الكبرى. »
أجابت كليوباترا وهي تبتسم :

« لديك أفكار غريبة، يا لورا. »
« أين دومنيك ؟ »
« في مكتبه، على ما أعتقد. لماذا تريدين رؤيته ؟ »
« لأطلب منه أن يسمح لي بالخروج. »
مدّت كليوباترا يدها مرة ثانية إلى علبة الشوكولا التي كانت تضعها على ركبتيها وقالت صارخة :
« ما بالك، يا لورا، لست مضطرة لاستئذانه. لم تعودي فتاة صغيرة ! انسي العادات التي رسّختها فيك العمة فلورا. إنّ آل تريفاين مختلفون، ولن يطول الوقت حتى تلاحظي ذلك. سيغضب دومنيك إذا أزعجه أحد خلال وقت القيلولة من أجل سبب تافه. لا أحد يهتم بأحد هنا. »
سمعت الفتاتان صوتاً يقول في مرح :
« يا لهذا الرأي السلبي ! »
كان دومنيك واقفاً على عتبة الباب. أضاف :
« أنت تشتمينني، يا كليوباترا. لم أكن نائماً ! لست عجوزاً بعد ! »
قالت كليوباترا في ابتسامة مغرية :
« بالطبع، يا دومنيك. إن عمرك ٣٥ سنة. إنه عمر جميل للرجال. »
استراحت في جلستها متمددة على الوسائد وتابعت :
« ما زال في إمكانك أن تتزوج إذا رغبت بذلك، بينما المرأة في سني لا تعتبر شابة. »
شعرت لورا بانزعاج. هل تتكلّم كليوباترا في جدّ ؟
اكتفى دومنيك بتقطيب حاجبيه وقال في لهجة تحد :
« النساء يحتفظن بأعمارهن ولا يبحن بها لأحد. »
قالت كليوباترا في فخر واعتذار :
« عمري ٢٥ سنة... وسأصبح في السادسة والعشرين قريباً. لكن حسب خبرتي بالرجال ومعرفتي بالحياة أبدو أكبر سناً بكثير. »
ابتسم دومنيك وظهرت الكدمة في زاوية خده. فلمسها بيده واعياً هذا العيب وقال :
« يا إلهي ! أنت تتلفظين بكلام بذيء ! »

لم تكن كليوباترا تنتظر ردّة الفعل هذه من دومنيك. وفي استياء قالت :
« يا دومنيك المسكين، تنقصك روح النكتة... ولا تعرف كيف تتصرّف مع الناس. »
أجابها في لهجة تهديد وإنذار :
« يا عزيزتي، نحن نعيش هنا بين الرجال ولا نختلف كثيراً عن أسلافنا. إن آل تريفاين لا يضيّعون وقتهم في إثارة النساء بكلمات التهذيب. »
حاولت كليوباترا الاحتجاج قائلة :
« وميريام، أليست امرأة ؟ »
أجابها بجفاف :
« ميريام هي جزء من العائلة. وأنت، يا لورا، أما كنت تودين الخروج ؟ »
انتفضت لورا لدى سماعها هذا السؤال المفاجىء. فقد سمعت هذا الحديث الغريب معتبرة أنها منسية.
« نعم، اني... انت... ألا تمانع في أن اقوم بجولة خارج المنزل ؟ »
« ستصابين بخيبة الأمل. إن بانسيون ليست قصراً ريفياً ولا تقع في قلب حديقة جميلة. تعالي فسأكون دليلك. »
كانت لورا تود أن تكتشف المكان وحدها. غمزت كليوباترا بلباقة، التي ردّت عليها بنظرة غاضبة. فجأة فهمت لورا أنه كان يجب عليها أن تخرج من الغرفة من دون أن يلاحظها أحد كي تبقى كليوباترا وحدها مع دومنيك.
لكن لورا نسيت قلّة ذوقها وهي تمشي مع الرجل الغامض الذي أصرّ على اصطحاب الكلاب معه. لم تتعوّد لورا في العطلات النادرة التي كانت تقضيها في الريف أن ترى مشهد الجبل العاري والتلال الصخرية المقطعة التي تحوم فوقها النوارس.
كان منزل آل تريفاين محاطاً بما يشبه العشب الذي أصبح أبيض بتأثير الملح البحري. والطرقات الضيقة المبنية من الحصى لا تدل على أن أحداً يعتني بهذه الحديقة. فغياب الزهور واضح والجدار الذي يحيط بالحديقة

مبني من القرميد. قالت لورا إنّ المنظر يتغيّر حقاً لو حلّت مكان هذا الحائط سلسلة من الأشجار. وعندما أطلعت دومنيك تريفاين على رأيها، سخر من جهلها وقال :

« انظري إلى هذه الأشجار الثلاث المنحنية التي ترينها هناك، الريح المستمرة تلويها وحتى في فصل الصيف، لذلك ترينها عارية من الأوراق. حاولت أمي زرع مختلف الأزهار، عدة مرّات كلها باءت بالفشل، لأن بانسيون ليست محمية من الرياح والعواصف. غير أنّ الأمر يختلف في الربيع. انتظري فالربيع على الأبواب. وسأريك الغرائب والروائع. النباتات الشائكة والأزهار البنفسجية والخنشار، كلّها تبدّل المنظر كلياً. »

وحسب طريقة كلامه فطنت لورا أنه فخور جداً بأرضه ومسكنه ولا يبدّلها بالأراضي الخصبة والخضراء مهما كلّفه الأمر.

أضاف قائلاً :

« ومن الآن إلى جيل أو جيلين، لا شك أن بانسيون ستتطور نحو الأفضل. أما في الوقت الحاضر، فإننا نعيش هنا، نصطاد العصافير والسمك ونبحر، وفي المساء نذهب إلى الحانات والنوادي الليلية. إذا جاء يوم وأصبح لعائلة تريفاين أولاد، وخاصة بنات، فإن الوضع سيتغيّر. »

استغربت لورا كل هذه التفاصيل. هل ينوي دومنيك تريفاين، هذا السيد الغامض، أن يتزوج. لم يجرؤ على الاستمرار في حديثه على المنوال نفسه ليوضح أفكاره، إذ استردّ غموضه فجأة وأصبح من جديد المالك الذي يرافق زائرته في جولة عادية حول ممتلكاته.

كانا يسيران على طول الساحل في اتجاه معاكس للريح التي كانت تعصف في قوة. والكلاب تركض بعيداً جداً أمامهما. فناداها دومنيك ولورا كانت ترمقه مرّة بعد مرّة بنظرات سريعة جانبية. البارحة مساء كان يرتدي بذلة العمل أما اليوم فكان في بذلة بحرية. وتخيّلته لورا في ربطة حول عينيه، كأنه صورة طبق الأصل للقرصان الذي ما يزال يهدد مخيلتها.

سألها :

« هل تحاولين تشريحي أو انني امشي أسرع منك ؟ »

اغتنمت لورا هذه الفرصة وقالت :

« قدماك طويلتان والريح قوية. »

ابتسم دومنيك ثم قال :

« لا يمكن لمن يراكِ أن يصدّق أنك ابنة خال كليوباترا. »

« أنتم، آل تريفاين، عكسنا، إذ تتشبهون ببعضكم في شكل واضح. »

« هل سبق لكليوباترا ان حدّثتك عن ترويلوس ؟ نعم، ترويلوس يشبهنا ويشبه بيريغرين أكثر مني. »

نظر إليها في سخرية جعلتها تشعر بالحيرة والارتباك. بالأمس كانت تعتبر عينيه سوداوين مثل أخيه، لكن في ضوء النهار أدركت أنهما زرقاوان وفي لمحة البصر بدا لها أن وجه دومنيك تغيّر كلياً.

ابتسم لها وأكمل شرحه وأشار إلى مكان المقلع الذي كان يقع بعيداً وراء مجموعة من المنازل.

« في الماضي كنّا نستخرج الحجارة ونبيعها كما هي، أما اليوم فلدينا مصنع لصقلها. هل تشاهدين هذه الأهرامات هناك ؟ إنها أنقاض. »

نظرت لورا في اتجاه اصبعه الممدودة واكتشفت وجود تلال غريبة تعلو الأرض القاحلة. لماذا يقدّم دومنيك كل هذه التفاصيل حول المكان ؟ لا شك أنّ أنانيته تفوق قلّة تهذيبه. وصعب على لورا أن تظهر اهتماماً بهذه الأماكن القاحلة المنفرة التي هي عبارة عن مركز صناعي ومنظر ممل. وأمام هذه الفكرة، ارتعشت لورا فسألها :

« هل تشعرين بالبرد ؟ »

« كلا. لكنني أجد هذه المنطقة حزينة جداً ! »

« الجوّ مكفهر اليوم والسماء رمادية. في الربيع، الطقس يختلف كلياً وسترين ذلك بنفسك. »

سألته في لهجة آسفة جعلته ينفجر ضاحكاً :

« هل تعرف هذه المنطقة فصل الربيع ؟ »

ثم أضافت :

« آه، المعذرة، اني أتفوّه بالحماقات. كانت العمة فلورا تحذّرني دائماً، والآن كليوباترا تلعب الدور نفسه. . . »

قاطعها دومنيك في نفاد صبر مفاجىء :

« لا تعيري انتباهاً لأفكار كليوباترا. »

« ما زالت تعتبرني الفتاة الصغيرة التي عرفتها قبل أن تتزوج. وأحياناً يزعجها تصرّفي. »

« آه، صحيح ! »

راحت لورا تتساءل ما إذا كان دومنيك رافقها في نزهتها هذه من باب اللياقة، وتأسفت من جديد لأنها لم تأتِ وحدها وتكتشف المكان حسب هواها. لماذا يعتبر آل تريفاين أنّ من واجبهم أن يشيدوا بممتلكاتهم أمام ضيوفهم ؟ ووصلت إلى القرار في أنه لو كان أمامها الاختيار لفضلت بيريغرين كدليل لها. على الأقل كان قد أضحكها وسلاّها.

أثناء العشاء كما في أثناء الغداء آل تريفاين يأكلون في صمت ويغادرون غرفة الطعام متى انتهوا من الأكل، من دون مراعاة بقية الضيوف. وانتبهت كليوباترا لاندهاش ابنة خالها، فعلّقت ضاحكة على القواعد العامة للياقة الحسنة. لكن ذلك لم يمنع دومنيك من مغادرة طاولة الطعام وهو يعلن قائلاً :

« على ابنة خالك المهذّبة أن تتكيّف مع عاداتنا وتقاليدنا. »

غادر الغرفة ولمّا أغلق الباب وراءه، استرخت كليوباترا في مقعدها وأشعلت سيكارة وأعلنت للورا التي كانت ما تزال أمام الطاولة كأنها في انتظار بقية الطعام :

« هنا، لا تقدم الفاكهة أو الحلوى أو القهوة. كما ليس من عاداتهم التجمع حول المدفأة بعد العشاء. »

فطنت لورا لتوتر ابنة عمتها التي لا يعجبها هذا الاهمال. عندما تكون كليوباترا في هذه الحالة من الانزعاج، تحاول أن تزعج انساناً آخر لا علاقة له بالأمر. لكن لورا لم تعد تلك الفريسة السهلة المنال. منذ وصولها إلى بانسيون وهي تراقب طبيعة ابنة عمتها وتصرفها الذي لا يختلف عن تصرف ابنها الصغير الذي يبلغ الخامسة من عمره.

أجابتها لورا في هدوء مزعج :

« لست في حاجة للفاكهة أو الحلوى أو القهوة. ولا حتى التجمع حول الموقد. أفضّل أن أجلس في غرفة المطالعة. »

أعلنت كليوباترا في جفاف وهي تنظر إلى النار المرتجفة :

« غرفة المطالعة هي المكان المفضّل لسيد المكان. وحذار أن تزعجيه. »

كما اعلمتها لورا بأن الرياح المتواصلة تهدّد دائماً بانقطاع التيار الكهربائي عن المنطقة. لكنّ آل تريفاين زودوا بانسيون بمولّد كهربائي خاص يستعملونه في الحالات الطارئة.

أضافت كليوباترا في لهجة عدائية :

« في كل حال، دومنيك لا يحب أن تحومي حوله وتزعجيه بالاسئلة حول تاريخ العائلة».

لم تتمكّن كليوباترا من اثارة غيظ لورا التي ظلّت غير مبالية بكلام ابنة عمتها. غير انها توصلت أخيراً الى أن تجعلها تقول في تلعثم :

« لا أفهم بعد الآن سبب احتجاجك ».

« لقد ارغمته على التنزه معك طيلة فترة ما بعد الظهر بينما كنت في حاجة اليه لنتناول حديثاً جدياً. ولما عاد، لاحظت أنه ملّ معك حتى الموت ».

وفي تلك الأثناء سمعت أصوات رجال في البهو، فابتسمت كليوباترا في رضى وانتفضت واقفة وهمّت بالذهاب للقاء الشقيقين.

ميريام التي كانت تسمع ما يدور من حديث بين الفتاتين بينما كانت توضب طاولة الطعام همست تقول :

« إنها تضيّع وقتها. آل تريفاين لا يليقون بها. »

قالت لورا مستغربة :

« كيف؟ »

لكن ميريام لم ترد عليها.

فجأة شعرت لورا بالتعب بعد أول يوم لها في هذا العالم الجديد، فسألت ميريام في تردد :

« هل تعتقدين أن في امكاني الذهاب الى فراشي الآن؟ »

من عتبة غرفة الطعام رنّ صوت مستاء يقول :

« لست في حاجة الى أن تطلبي اذناً بذلك! هل ستستأذنين للاستحمام كذلك؟ »

« كيف باستطاعتي معرفة ما يمكنني فعله في هذا المنزل الغريب؟ ربما كان

الماء بارداً! »

ابتسم دومنيك، فوجهت لورا سؤالها الى ميريام: « هل في امكاني مساعدتك بشيء. »

قال دومنيك في الحال:

« كلا. اذهبي الى فراشك. واذا أردت الاستحمام، فاستفيدي من ذلك، إن الماء ساخن الآن! »

« اذن، تصبح على خير. »

كان دومنيك واقفاً أمام الباب ساداً عليها طريق المرور. فشعرت بانزعاج وتوقفت امامه منتظرة ان يفسح لها في مجال الخروج. ولاحظت لورا أنّ عينيه سوداوان ووقحتان مثل عيني بيريغرين.

قال:

« لم أكن على استعداد لاستقبال فتاة من طينتك عندما طالبت بحضور أرملة أخي الى هنا! »

صوته يختلف كلياً عن صوت بيريغرين. ولاحظت في وجهه بعض الانزعاج وفكرت بابنة عمتها التي لا شك أنها كانت صادقة عندما قالت إن دومنيك ضجر منها خلال فترة ما بعد الظهر. فسألته:

« كنت تتمنى خادمة أولاد، أليس كذلك؟ »

قال في استغراب بعد أن اختفت من وجهه المحدق فيها سمات السخرية:

« لا يهم! أنت زائرتي قبل كل شيء. »

ابتسم لها في لطف واضاف:

« لا تقلقي، يا آنسة سميث، ستعتادين على طريقة حياتنا واني متأكد من أننا سنتعود على نمط حياتك ايضاً. اذهبي الى فراشك. مع الوقت ستكتشفين أنّ آل تريفاين يحدثون ضجة كبيرة، لكنهم لا يؤذون أحداً. تصبحين على خير! »

ثم اختفى ليدعها تمر، واجتازت لورا البهو متوجهة الى غرفتها.

خلال الاسبوع التالي، بدأت لورا تألف الضجة اليومية وخاصة الانفجارات الآتية من المقلع، واصوات الكلاب وتعليقات ميريام غير

المتناسقة. حتى الشجار العنيف الذي يحدث في استمرار بين الشقيقين المتعارضين في الراي، بدأت تتعوّد عليه. محل الازهار حيث كانت تعمل وغرفتها الصغيرة، أصبحتا بعيدتين كأنهما خيالان.

قالت لورا ذات يوم لكليوباترا:

« حظي كبير. ما كان تسنى لي المجيء الى هنا لو لم تعتذر المربية في اللحظة الأخيرة. »

تأملتها كليوباترا غير مقتنعة وقالت:

« إني أتساءل ما اذا كان ما تقولينه صحيحاً. أنت عاطفية جداً. ولا يجب أن تتعلّقي كثيراً بالشقيقين، وتبني آمالاً وهمية عليهما. »

« والآن ماذا ستخترعين؟ »

« أنا لا أخترع شيئاً وأنت تعرفين ذلك تماماً. لا يمكن لبيري أن يمنع نفسه من مغازلة كل النساء وخاصة إذا كان ذلك يزعج دومنيك . . . »

« لا أرى ما الذي يجعل دومنيك يغتاظ من تصرف بيري. وفي كل حال دومنيك لا يهتم به على ما أظن! »

« آه لا! لكن دومنيك، بالرغم من قلة ثقافته، يصرّ على احترام مدعويه وهو يعرف تماماً طبع بيري. ربما حاول بيري اغراءك فقط من أجل اغاظة دومنيك. »

« يا لطبعه السيء! »

« انه يشبه ترويلوس تمام الشبه. طبعه سيء كما قلت، لكنه كان مرحاً ومسلياً! ولم أمل معه لحظة. »

تجهم وجه المرأة قليلاً فتجرأت لورا على القول:

« وبما أن بيريغرين يشبه زوجك تمام الشبه، ألا تشعرين. . . برغبة في الزواج منه؟ »

تحوّلت تكشيرة وجه كليوباترا الى تعبير مرّ وساخر:

« يا عزيزتي الخالة، ليس بيري من نوع الرجال الذين يتزوجون. »

فسألتها لورا التي تعتقد أن زواجاً ثانياً يساعد نيكولا على تأمين مستقبله:

« ماذا تأملين من مجيئك الى هنا مع نيكولا؟ »

« لم أفقد كل شيء »، يا لورا الحمقاء. إنهم شقيقان في كل حال، أنت أيضاً تطمعين بهما. »
« آه، ما هذا يا كليوباترا. أكاد لا أعرفها. »
أصرّت كليوباترا على مناكدة لورا وقالت :
« حذار. لا تحاولي التسلية والمرح مع بيري، لأنّ دومنيك له آراء بالية في الفتيات ولا أريد أن يطرد مربية ابني لأنها لم تستطع ضبط غرائزها ! »
أطلقت كليوباترا هذا التحذير من دون تفكير فقط من أجل إيجاد موضوع طريف خلال هذا الصباح الرتيب. غير أن لورا لم تأخذ وقتاً طويلاً لتدرك أن كليوباترا على حق.
كانت تتسلق كرسياً لالتقاط كتاب عندما دخل بيريغرين إلى غرفة المكتبة من دون إحداث ضجة عائداً من الملعب. فأمسك بها من خصرها. فافلتت لورا منه ضاحكة فارتطمت من دون انتباه بدومنيك الذي كان يجتاز الممر. فسألها :
« لماذا تركضين هكذا ؟ »
أجابت من دون حذر :
« بسبب بيريغرين. »
ظهر بريغرين الذي كان يلحق بلورا.
فقال له دومنيك في غضب :
« دع هذه الأساليب الملتوية لمعاشراتك السيئة ! »
أجاب بيريغرين ساخراً :
« وضعت نفسك في حماية دومنيك ! أنت لست بالفتاة التي يمكنني أن أغريها، يا عزيزتي. وأرجو ألاّ يخيب أملك ! . »
صرخ دومنيك :
« اخرس واخرج من هنا. »
أخذا يتبادلان الشتائم، وفي النهاية خرج بيريغرين صافقاً الباب بقوة وراءه. وبعد لحظات سمعت أصوات محرك سيارته فالتفت دومنيك نحو لورا وقال :
« اعتذر عن أخي. وما دمت تسكنين في منزلي، فارجوك ان. . . »

قاطعته لورا غاضبة :
« أن أتصرف باتزان ؟ سبق أن قالت لي كليوباترا هذا الكلام. »
انفرجت قسمات وجهه وعاد يقول في لهجة هادئة :
« هل صحيح أن كليوباترا قالت لك ذلك ؟ ليس هذا ما كنت أنوي قوله. وإني أتساءل بماذا تفكر . . . تجاهك. هل تدفع لك لقاء اهتمامك بابنها ؟ »
« كلا. لا مجال لذلك بين الأقارب ! »
« هذا ما يلائم كليوباترا تماماً. »
انزعجت لورا من هذا الحديث وكانت تأمل ألاّ يفتح هذا الموضوع مع كليوباترا. لماذا تخيّلت أن دومنيك سيقف بجانبها ؟ إن آل تريفاين غير لطفاء وقد حذرتها كليوباترا بذلك ما فيه الكفاية.
أطلقت زفرة طويلة. فابتسم لها دومنيك هازئاً وقال :
« كنت أريد ان أنبهك، يا لورا، أن تحترسي من أخي. هذا ما كنت أنوي قوله. »
احتجت قائلة :
« أعرف تماماً كيف أتصرف. عمري ٢٠ سنة ولدي خبرة لا بأس بها في الحياة. الجميع هنا يعتقد أني غبية، أليس كذلك ؟ »
في الحقيقة الجميع يريد أن يقدم لها النصائح. أجاب :
« ما تزالين صغيرة، يا لورا. »
« انك تعتبرني صغيرة، أليس كذلك. لا شك أني أبدو ساذجة وأنوثتي لا تغري أحداً. »
مدّ لها دومنيك يده، وفي حركة غير منتظرة، أبعد عن وجهها خصلة الشعر المنسدلة على جبينها وقال :
« لا تخجلي من شبابك، إنه جزء من سحرك وجاذبيتك. »
فوجئت لورا بهذا الكلام. ورفعت نحوه نظرات متسائلة. فاشتبكت نظراتها ولمحت لورا مرّة ثانية عينيه الزرقاوين اللماعتين. وفي لمح البصر، غيّرت لورا رأيها فيه. أصابعه الدافئة حول عنقها أزالت عنها العدائية التي تكنها له وابتسمت ثم قالت متلعثمة :

« أنت إنسان غير عادي. »

« ليس أخي هو الوحيد الذي يعرف كيف يفاجىء النساء. غداً، بداية فصل الربيع. وسأريك انّ الربيع يأتي إلى هنا. »

٤- النزهة

إنه اليوم الأول للربيع... رنّت هذه الكلمات مثل عبارة سحرية. وفي اليوم التالي قفزت لورا من سريرها وأسرعت نحو النافذة. كان الطقس جميلاً والبحر والسماء أزرقين، لكنّ الازهار لم تتفتّح خلال الليل. لم تكن لورا تعرف الاشارات الخفية التي تعلن ميلاد الربيع بعد الشتاء القاسي.

قالت لورا في صوت عالٍ ومتوتر:

« لماذا ظننت أن كل شيء سيتبدّل كلياً؟ »

أجابتها ميريام في جدية:

« لأنك ما زلت صغيرة وتؤمنين بالعجائب. »

وضعت ميريام الصينية التي تحملها كل صباح إلى لورا. وتقدمت من النافذة حيث كانت لورا لا تزال تحدّق خارجاً.

« ألا ترين النباتات الصغيرة والبراعم الطرية الخضراء. وهذه الجذوع النحيلة ستطرح عما قريب الزهر الصغير الملون. . . وعلى طول الشاطىء ستجدينَ لاوندة البحار، والقصاب وعدداً لا ينتهي من النباتات البرية. ما عليك إلاّ أن تفتحي عينيك في فضول ! »

كلام ميريام أطلق مخيّلة لورا فقرّرت أن تذهب في نزهة برفقة نيكولا.

وبدلاً من أن تعود إلى فراشها لتناول الشاي كعادتها، سارعت إلى افراغ فنجانها وراحت تعد نفسها من دون أن تبالي بوجود ميريام التي كانت تحب أن تبقى مطولاً برفقة لورا التي سألتها :

« لماذا عارض العجوز تريفاين زواج تريلوس من ابنة عمتي. أعرف انه اختار له عروساً أخرى، لكن في أيامنا هذه، هذه الأمور باتت قديمة بالية. »

مسحت ميريام الغبار عن منضدة الزينة بطرف فستانها وقالت :

« العروس كانت في انتظار مولود من تريلوس بالذات وكانت تنتمي إلى عائلة كبيرة في المنطقة. ولما رفض تريلوس الزواج منها، اتهمت العائلة بالعار. »

فوجئت لورا بهذا وتأثرت جداً. هل كانت كليوباترا تعرف هذه الحقيقة عندما هربت مع تريلوس ؟

تابعت ميريام في هدوء ولا مبالاة :

« القضية كانت مؤلمة جداً. وعقّد دومنيك الأمور باقتراحه الزواج من الفتاة. »

وقفت لورا جامدة وفتحت عينيها وقالت :

« وكان دومنيك على استعداد للتضحية من أجل انقاذ شرف العائلة ! »

« كلا. هذه الفتاة كانت خطيبته قبل ذلك. »

« آه لا ! إذن لم يكن العجوز تريفاين يريدها زوجة لتريلوس؟».

« أبداً. لم يكن يهتم إلاّ بتزويج ولده البكر، وريثه الأول. ألم تطلعك ابنة عمتك على ذلك. »

« كلا. هي تعتقد أن تريلوس كان يعمل بنصيحة والده بأن يتزوج زواجاً عقلياً. »

« هل هذا ما قاله تريلوس لها ؟ إنه قادر على خلق مثل هذه الكذبة. في كل حال، راح يتسلّى باغراء خطيبة دومنيك من أجل تحدّي أخيه، لا أكثر ولا أقل. »

« لماذا أقدم تريلوس على هذا الشيء ؟ »

« للانتقام، يا عزيزتي. إنّ وصية العجوز زكاري تعطي الأفضلية لدومنيك. »

انتهت لورا من ارتداء ملابسها. ما سمعته الآن، يرعبها. لا شك أن كليوباترا تجهل هذه القصة وإلاّ لما تجرأت وطرقت باب بانسيون. وليس أمام دومنيك أي دافع ليتصرّف بكرم نحو ابن أخيه.

« ولماذا لم يتزوج دومنيك من الفتاة ؟ »

« في كورنويل الناس يتمسكون بكراماتهم. رفضت شفقة دومنيك. حسب رأيي، هذه حجة فحسب. كانت ترغب في الزواج من تريلوس ولا تريد الاكتفاء بما تبقى. »

« بما تبقى ! لكن دومنيك أفضل من أخيه بعشرات المرّات. »

ابتسمت ميريام وقالت :

« أنت على حق، يا ابنتي العزيزة. غير أن قوة الاغراء تتغلّب دائماً على قيمة الانسان الحقيقية، خاصة إذا كان هو المغلوب. »

« من المغلوب ؟ »

« حاول تريلوس أن يتهم دومنيك بأنه هو والد الطفل المنتظر، فتشاجرا في المقلع. وقذف تريلوس أخاه بالحجارة مما أدى إلى إصابة خد دومنيك، والأثر ما زال ظاهراً في الكدمة على وجهه. . . وهذا الحادث المرير جعل العمال يطردون تريلوس من المنطقة ومنذ ذلك الحين لم يجرؤ على العودة. »

كانت ميريام تصف هذه الحوادث في هدوء مدهش. بالنسبة إليها كل هذا يتعلق بالماضي.

« وماذا حلّ بالفتاة ؟ »

تناولت ميريام صينية لورا واتجهت نحو الباب وأجابت في لا مبالاة :

« اضطرت عائلة الفتاة إلى أن تغادر المنطقة هي أيضاً. والظاهر أنها

نجحت في إيجاد عريس لها وتزوجت. »

« من تزوجها؟ ».

قالت كليوباترا وهي تدخل إلى الغرفة من دون أن تطرق الباب :

« لورا، ماذا تنتظرين لتذهبي الى نيكولا ؟ يريد أن ينهض من سريره. ولم أعد أطيق صراخه. »

قالت ميريام في لهجة عتابية :

« كان في امكانك أن تهتمي به ولو لمرّة واحدة. »

« هذا شأن لورا. »

« انت لا تدفعين لها أجرة عملها. »

انزعجت كليوباترا وقالت :

« كيف تسمحين لنفسك بانتقادي ؟ »

« أنا لست في صدد انتقادك، كل ما أريد قوله أن اليوم هو يوم أحد وأول فصل الربيع. والأمور ستتغير. »

وغادرت المكان، فهزت كليوباترا كتفيها وقالت :

« يا لهذه المرأة الوقحة ! »

جلست لورا أمام منضدة الزينة لتزين وجهها وتعطر خديها. فصرخت كليوباترا :

« تعالي الآن. لن يلاحظ نيكولا إذا ما كنت قد زينت أنفك أم لا، حتى الشقيقان لا يلاحظان ذلك، على ما أظن. »

أكملت لورا وضع الحمرة على شفتيها من دون مبالاة وقالت :

« إنّ ما أفعله هو من أجلي فقط. »

فجأة صرخت كليوباترا :

« أنا امرأة متطلبة. أنت جميلة يا حبيبتي، لكن من فضلك كوني لطيفة واعتني بنيكولا. »

كان الصبي في مزاج سيء. لم يكفّ عن القيام بحركات بينما كانت لورا تحاول جهدها مساعدته على ارتداء ملابسه. وبينما كانت تقوم بذلك راحت تستعيد ما قالته ميريام. انها ترى الآن دومنيك تريفاين في صورة أخرى. وبدأت تدرك طريقة تصرفه. وتفهم مرارته الجارفة وتصرفه الفخور

احياناً.

وفجأة صرخت :

« نيكولا، اهدأ قليلاً. »

وراحت تتأمل وجهه الصغير الذي يشبه وجه بيريغرين. كيف ينظر دومنيك الى هذا الولد الذي يذكره بحوادث أليمة ؟

سألها نيكولا في فرح :

« لماذا لا تذهب إلى الكنيسة ؟ »

« لا أعرف. »

« آموس يذهب كل نهار أحد. فلماذا لا تذهب نحن أيضاً ؟ القسيس يتحدث عن الجحيم. هل صحيح اننا نفوس معذبة، يا لورا ؟ »

« لا ! دعني أمشط شعرك... إذا أردت فعلاً الذهاب الى الكنيسة، يجب عليك أن تطلب ذلك من دومنيك في لطف وتهذيب. وأنا متأكدة من أنه لن يرفض طلبك، بل سيرافقك الى الكنيسة. »

« لا يمكنه أن يذهب إلى الكنيسة. لقد فقد روحه. »

« يا لهذه التفاهة ! »

« بلى، آموس قال لي ذلك ! قال انه يحمل آثار قايين. »

ولعدّة لحظات فقدت لورا قدرتها على الكلام. صعقتها هذه الأقوال. لا شك أنّ آموس يقارن دومنيك وتريولوس بقايين وهابيل، الشقيقين العدوين.

« اسمعني جيداً، يا نيكولا. إن آموس مخطىء تماماً. الكدمة في خد دومنيك ناتجة عن حادث بسيط. أنت أيضاً تحمل آثار سقطة في ركبتك. »

تفحّص نيكولا ركبته وقال :

« هل سقط دومنيك لانه لم يكن ينظر أمامه ؟ »

« لا شك في ذلك. »

لكن الولد رمقها بنظرة مليئة وقال :

« لا، يا مومو، الأشخاص الكبار لا يقعون مثل الصغار. أنت تكذبين وستنالين عقابك أنت أيضاً. »

وعندما انتهت لورا من تناول فطور الصباح، لاحظت في حزن أن

الفرح الذي انتابها عندما استيقظت وليّ. لم ينسَ دومنيك ما وعدها به :
« نستطيع أن نأخذ السيارة في جولة استكشافية في المنطقة، إذا كان الأمر يغريك؟ »
صرخت بعدما استرجعت بهجتها تلقائياً :
« آه، أرغب جداً في ذلك. »
أقوال ميريام جعلتها ترغب في الظهور بمظهر محب تجاه دومنيك.
« كنت أفكر في الخروج واكتشاف الاشياء الجميلة التي حدثتني ميريام عنها. »
كانت الخادمة تعد مائدة الطعام وقالت :
« سأهتم بنيكولا. »
قال دومنيك :
« كنت أود تنظيم نزهة نصطحب فيها بعض المأكولات ونأخذها في الهواء الطلق ونصطحب أيضاً نيكولا معنا. لم يتسنّ لي فرصة التعرف إلى نيكولا كما يجب. هل تحب أن تأتي معنا، يا نيكولا ؟ »
أجاب نيكولا في الحال :
« كلا. »
« ستأتي والدتك أيضاً وكذلك مومو. »
« وآموس ؟ »
« كلا، آموس سيبقى هنا، فهو مرتبط بأعمال ضرورية. »
« أريد أن أبقى معه. »
« لكن ليس اليوم. »
ظل دومنيك محافظاً على هدوئه. وبيريغرين يتابع الحديث في صمت. وفرح جداً لردّة فعل نيكولا، إذ رمقه بغمزة عينٍ متآمرة وقال له :
« سنذهب جميعنا، يا نيكولا. ويمكنك أن تستقل سيارتي. لكن، إذا فضلت البقاء مع آموس، فسآخذ معي أحداً آخر. »
تغيّرت ملامح الصبي في صورة جذرية. فأسرع إلى أحضان بيري وألحّ عليه متوسلاً أن يصطحبه في سيارته الجديدة. فلاحظت لورا في الحال أن سحابة حزن غمرت وجه دومنيك وشعرت برغبة ملحة في أن تصفع

بيريغرين !
قال دومنيك وهو يقف :
« اتفقنا. سترافقينا، يا ميريام. وستترين لورا أفضل مني أشارات الربيع الخفية. وأنت، يا بيري، بما أنك ستأخذ نيكولا في سيارتك، فعليك أن تغلق غطاء السيارة لأن الطقس ما زال بارداً. لورا، أرجو إعلام ابنة عمتك أن تستعد وتكون جاهزة في الساعة الحادية عشرة والنصف. »
وبعدما انتهى من إصدار أوامره في لهجة جافة، غادر سيد بانسيون الغرفة.
قال بيريغرين في سخرية وهو يرمق لورا بابتسامة وقحة :
« رأيت الآن السيد الجشع في كل رونقه وعظمته. »
ولأنها لم تكن ترغب في الهزء من دومنيك في هذه اللحظة بالذات، فقد قالت له ببرود :
« لا أجدك هذا الانسان المسلي أبداً. »
قالت ميريام وهي تسرح شعرها :
« النكتة لا تنجح دائماً. نيكولا، الصبيان الصغار الذي يمصون اصبعهم يذهبون إلى الجحيم. »
أجابها الصبي متسائلاً :
« وأنت، هل ستذهبين إلى الجنة ؟ »
« طبعاً. لورا، يجب أن تذهبي وتقولي لكليوباترا أن تعدّ نفسها. أما أنت، يا نيكولا، فيمكنك أن تأتي معي إلى المطبخ وتساعدني في اعداد ساندويشات الجبنة والدجاج وبقية اللحوم الباردة. لا شك أن الخبز أصبح قاسياً. . . »
خرجت الخادمة من غرفة الطعام وهي ما تزال تتمتم ببعض الكلمات. وما أن أصبحت خارج الغرفة حتى صرخ بيريغرين قائلاً :
« يا لهذه العجوز المجنونة ! كانت عشيقة والدي، هل تعرفين ذلك ؟ »
لزمت لورا الصمت هي التي تعودت على وقاحة الخادمة وقلة لطفها. لكن وجهها كان يعبر عن عدم إعجابها بالخادمة، فراح يسخر منها ويقول :

« نسيت أنك إنسانة على أفضل ما يكون من تربية وأخلاق، يا آنسة سميث ! ألم أنبهك من قبل أن الحياة بين القراصنة لا تناسبك ؟ »
أجابت باللهجة نفسها التي تستعملها عندما توبخ نيكولا :
« دع تفاهاتك لنفسك ! »
وفي عنف، ارتمى بيريغرين عليها وراح يوبخها بدوره قائلاً :
« لن تلقنيني درساً. »
أخذ يعانقها في قوة وحشية، ثم أبعدها عنه وقال ساخراً :
« ماذا تنتظرين كي تصرخي الآن ؟ »
« من أجل عناق كريه، أنت تمزح ! »
« أيتها الفتاة المزعجة ! »
لكن هذه المرة عانقها في نعومة. ولم يتوقف إلاّ لدى سماعه صوت دومنيك، أدارت لورا وجهها في الحال. وفي المرآة المعلقة في الجدار رأته يدخل وراح ينقل نظره من بيري الى لورا من دون أن ينطق بكلمة. ملامح وجهه كانت عتيقة.

فسأله بيري في لهجة غير مبالية :
« هل كنت تبحث عني، يا دومنيك ؟ »
« نعم. أنا في حاجة إلى من يساعدني لتركيب باب المغسلة. »
وفكرت لورا بأن النهار بدأ خطأ وهي تصعد لتعد نفسها وتخبر كليوباترا بموعد النزهة. لا شك أن بيري يبحث عن المشاكل، كما قرر نيكولا أن يتصرف بكراهية حتى لا يطيقه أحد. وإضافة إلى ذلك استقبلت كليوباترا فكرة الخروج إلى النزهة في احتجاج عنيف إذ قالت :
« بدأ آل تريفاين يقومون بمشاريع سياحية ويخططون للنزهات الآن ! هل أنت سبب هذا التغيير الجذري ؟ »
« لا أعتقد. يأمل دومنيك في اصطحابي لأرى القرية في هذا اليوم الأول من الربيع، ويريد كذلك أن يحاول التقرب أكثر فأكثر من نيكولا. عليك أن تقومي بجهد يا كليوباترا والمجيء معنا. »
« أنت على حق، يا لورا. »
نهضت من سريرها في تردد وقالت :

« إني سعيدة جداً لأن دومنيك بدأ يهتم بنيكولا. »
« للأسف لم يكن نيكولا يطاق اليوم. إنه متعلق تعلقاً أعمى بآموس. ولو لم يقترح عليه بيريغرين أخذه في سيارته لما اقتنع بالمجيء معنا. »
« هل بيري آت هو أيضاً ؟ »
فرحت كليوباترا بالقصة وفي الحادية عشرة والنصف كانت جاهزة في البهو. كانت تبدو على أنوثة واضحة في سروالها الضيق وسترتها القصيرة. غير أنّ ميريام كانت ترتدي فستاناً من عهد جدتها. أما بالنسبة إلى نيكولا فكان يبدو أهدأ حتى بيري عدل عن نظرته المتحدية. وشعرت لورا بارتياح.
وخيّل أن دومنيك هو الوحيد المنزعج. لا شك أنه لم يكن معتاداً على النزهات برفقة العائلة كلها. ولمّا طلب من لورا أن تجلس قرب ميريام في المقعد الخلفي لسيارته سألته :
« هل هذه النزهة في الهواء الطلق هي الأولى بالنسبة إليك ؟ »
« نعم. لقد فطنت للأمر ! في بانسيون هذا النوع من التسليات نادر للغاية. كما أننا لا نستقبل الزوار. »
« إذن، فعلت حسناً في دعوة ابنة عمتي وابنها وأنا، أليس كذلك ؟ »
« فعلت حسناً، يا آنسة سميث. »
كانت كليوباترا تجلس في المقعد الأمامي قرب دومنيك. ونيكولا يستقر في سيارة بيريغرين الذي بدأ محركها القوي يصدر أصواتاً غريبة. كان سعيداً للغاية.
كانت لورا تحدّق في ظهر دومنيك بينما كان يخرج من الباب الحديدي للمنزل ووراء سيارة بيريغرين. ألم يندم على هذه البلبلة في عاداته ؟
أما ميريام فكانت معجبة بدورها كدليل. وكانت تشير إلى الآثارات السلتية وتخبرهم عن آلاف الأشياء الأخرى التي سيرونها في هذه النزهة. لكن في الواقع لم يروا شيئاً.
لم يعد دومنيك يرى سيارة بيري أمامه. فقد أسرع هذا الأخير في سيارته ليفرح الصبي ويظهر عظمة سيارته. لكنّه توقّف فجأة على طرف الطريق في منطقة معرضة للريح. فوصل دومنيك بعد لحظات وأوقف سيارته خلف

سيارة بيري الذي أعلن قائلاً :

« لن أقوم بخطوة مع هذا الصبي . »

أجابه دومنيك في جفاف :

« لو لم تنطلق بسرعة كالمجنون ، لما تقيأ نيكولا . »

أرادت كليوباترا تنظيف الأوساخ التي أحدثها نيكولا ، لكن لورا هي التي قامت بتنظيف الصبي وعندما أرادت أن تنظف السيارة امسكها دومنيك بكتفها وقال :

« اتركي هذا العمل المزهق لأخي . »

بدأ بيريغرين باطلاق الاحتجاجات العنيفة فراح نيكولا يبكي .

طمأنه دومنيك قائلاً :

« ليس هناك شيء خطر ، يا بني . »

وللمرّة الأولى ابتسم نيكولا بالرغم من الدموع المنهمرة على خده . في الحال أطلق بيري رأياً مضحكاً ليمنع أخاه من تسجيل نقطة انتصار .

وفكرت لورا بترويلوس . إنّ بيريغرين يتصرّف مثله تماماً في محاولاته المستمرة لجرح شعور دومنيك بأساليب حقيرة . . .

قال بيريغرين :

« هذه النزهة فكرة غير معقولة ! »

أكدّ دومنيك الواثق تماماً من نفسه :

« عد إلى بانسيون إذا ما رغبت في ذلك . أنا لن أبقيك معنا بالقوة . »

« إذن . . . سأبقى . . . لا أريد أن أدعك تفرح برحيلي ! »

لورا التي تريد منع حدوث عراك بين الشقيقين العدوين قالت :

« في امكاننا أن نتناول الطعام في تلك الزاوية ، وراء الصخور المحمية من الريح القوية . »

كان دومنيك شاكراً لها لتدخّلها المفاجىء . ابتسم لها وأخرج سلة الطعام من صندوق السيارة .

قرّرت ميريام الهبوط من السيارة فرمقت بيريغرين بنظرة ثاقبة ونصحته بأن يراقب تصرفاته وحركاته . بالرغم من أنها كانت تبدو غائبة فأظهرت بهذه الكلمات أنها كانت تراقب عن كثب كل ما حدث .

وبينما كان دومنيك يفرغ محتوى السلة اكتشفت أن ميريام نسيت أن تحضر الصحون والشوك والملاعق . فقال :

« لا ينقصنا بعد سوى أن نأكل بأصابعنا ! »

لم تستطع لورا منع انطلاق ضحكتها العالية ، وتبعتها كليوباترا في الحال وقد تمددت على الشرشف المنبسط على الأرض وقالت :

« اننا نؤلف لوحة هزلية ! نزهة وطعام في الهواء الطلق في شهر آذار! آه ، سأتذكر مطولاً اليوم الأول للربيع ! هل لورا هي التي أثرت عليك كالوباء بأفكارها الجنونية ، يا دومنيك ؟ »

تبدله المفاجىء كان دليلاً واضحاً على أنه لم يستحسن مزاح المرأة .

ولحسن الحظ استرخى الجميع غير أن بيريغرين كان يحاول باستمرار افشال جهود أخيه الكبير الذي يسعى إلى كسب ثقة الولد . ولاحظ نيكولا أنه أصبح محطّ اهتمام عمّيه . وخيّل إليه أن في إمكانه أن يفعل ما يريد . ميريام الحالمة لم تتدخل في الأمر . أما كليوباترا المستندة إلى الصخرة ، فكانت مغمضة العينين . لورا وحدها تتبع خطورة الموقف وتطوره .

نيكولا الذي لم يأخذ قيلولة النهار بدأ لا يطاق .

ولما دعاه دومنيك للقيام بجولة حول الجبل الصخري ، رفض في قلة تهذيب والتفت نحو بيريغرين وقال له :

« أريد أن ألعب لعبة الحصان القارن ! »

فسألت لورا :

« أليس هناك أسطورة حول حصان القارن ؟ »

ظهر في عيني بيري بريق ساخر وقال :

« نعم ، هناك أسطورة غريبة . »

« اخبرنا إياها ، فسيفرح نيكولا بها . »

« أشك في الأمر . ما رأيك ، يا دومنيك ؟ »

كان السيد يدخن الغليون وتجاهل سؤال أخيه ولم يبال في الرد عليه .

تثاءبت كليوباترا وتمددت مثل هرة وقالت :

« لورا تحب الاساطير حتى الجنون . أما أنا فإنني أملّ منها حتى الموت . »

قال بيريغرين ساخراً :

« لست في حاجة لأن تصغي ما دام الأمر لا يهمّك. من زمان كان هناك حيوانات هي عبارة عن خيول ذات قرن في منتصف الرأس. انها حيوانات فخورة ولا تقهر. وكان من المستحيل القبض عليها بوسائل الصيد الاعتيادية. اتعرفون كيف كان يتم القبض عليها ؟ »

في تعبير ساخر راح يتأمل كليوباترا، ثم لورا. فقال نيكولا :

« كيف ؟ »

« لالتقاط حصان القارن، كان الصيادون يستعملون فتاة عذراء كطعم جاذب. . . »

« فتاة عذراء ؟ ماذا يعني ذلك ؟ »

استاء نيكولا من هذه القصة التي لم يفهمها، فصرخ قائلاً :

« ان قصتك تافهة، يا عمي بيري ! »

نظر دومنيك مطولاً وفي غرابة إلى وجه لورا التي بدأت تضطرب وتشعر بالانزعاج، ثم قالت في تلعثم لتخفي توترها :

« انها قصة مليئة بالرموز، يا نيكولا. »

وفي الحال سأل الولد ما معنى كلمة «رموز»، فسارعت ميريام إلى القول :

« الرمز يحتوي على حقيقة خفية. ستفهم معنى ذلك في المستقبل. عند آل تريفابن حصان قارن. وربما تحوّلت أنت يوماً إلى حصان قارن. »

أطلق الصبي صرخة رعب، فراحت كليوباترا تؤنب ميريام قائلة :

« لماذا تخبرينه كل هذه التفاهات ؟ »

وبدلاً من أن تهتم بابنها، راحت تنظر إلى بيريغرين في إمعان، ثم أعلنت فجأة أنها تشعر بالبرد وتود أن تمشي قليلاً. فنهضا معاً بعد تفاهم بالنظرات وابتعدا من دون أن يدعوا أحداً ليرافقهما. حاولت لورا بكل جهدها ارضاء الولد ومؤانسته من دون جدوى.

قال دومنيك في صوت خفيض :

« اني آسف جداً. لم اكن أريد أن أريك الربيع في هذا المظهر، يا لورا. »

نهضت لورا فجأة وقالت :

« نيكولا في حاجة إلى أخذ قيلولة. سأحاول أن أدعه ينام في السيارة. »

تبعها الولد من دون أن تلح عليه. وبعدما عادت لورا إلى حيث كانت جالسة برفقة دومنيك، سألته في قليل من الحذر :

« هل يضايقك نيكولا ؟ »

أجاب في لهجة حزينة :

« كلا، انني أتألم فقط من النفور والاشمئزاز والبغض الشديد التي يشعر بها نحوي. لو يترك لي بيريغرين حظاً واحداً مع نيكولا لـ. . . »

لم يشأ إكمال جملته. إذ أنه مستاء حقاً من تصرفات أخيه الوقحة. هل أن دومنيك يقارن هذه التصرفات بالضربة القاسية التي أوقعه تريولوس بها ؟

قالت لورا :

« إن بيريغرين يتصرّف مثل ولد متقلّب الأطوار. »

« لا تقلّلي من أهميته، يا آنسة سميث. إنه يبلغ السادسة والعشرين من عمره ويتصرّف تصرف الكبار الناضجين. وأفضل لك ألاّ تنسي ذلك. »

تكلم بلهجة لا مبالية لكنّ نظرته القاسية جعلت لورا تحمرّ خجلاً. ما يقوله بمثابة انذار لها.

« اني ناضجة أهتم بنفسي تماماً، كما أعرف كيف يجب أن أتصرف. شكراً »

« قلت لي هذا الكلام بالأمس. . . وأنت على خبرة واسعة في الحياة، أليس كذلك ؟ »

« هل هذا يضحكك ! »

« فعلاً. يحدث لي أحياناً أن أضحك. وآمل ألاّ تخافي من قسوتي العادية كما يفعل نيكولا. هل تعتبرينني انساناً غريباً، يا لورا ؟ »

« مثل حصان القارن. »

« الاسطورة أثّرت فيك، أليس كذلك ؟ يا إلهي. . . كم تحمرّين بسهولة ! هل تعتبرينني حقاً مثل حصان قارن ؟ »

عاد بيريغرين ولاحظ انزعاجها، فقال مازحاً :

« أيها الثعلب العجوز، هل تستفيد من غيابنا لتوتر أعصاب الفتاة ! ونحن أيضاً لم نضيّع وقتنا، أليس ما أقوله صحيحاً، يا كليوباترا ؟ »

قال دومنيك في لهجة آمرة :

« اخرس. »

لم تنطق كليوباترا بكلمة واحدة، لكن ابتسامتها بدت واضحة.

راح دومنيك يجمع الأغراض ويضع ما تبقى من المأكولات داخل السلة، معلناً انتهاء النزهة.

ولما حان الوقت للذهاب رفض بيريغرين اصطحاب نيكولا معه. ثم نظر إلى الفتاتين في سخرية وقال :

« من منكما تأتي معي ؟ »

أكدّت له لورا في جفاف أنها ترفض الذهاب معه، ثم أدارت له ظهرها، فأعلن في الحال :

« لا تهربي يا عزيزتي بهذه السهولة، خاصة بعد لقائنا الحميم صباح اليوم. »

حمل لورا بين ذراعيه ليرغمها بالقوة على أن تصعد في سيارته. فصرخ دومنيك في عنف قائلاً :

« اتركها وابتعد عنها ! »

أطاع بيريغرين وقال :

« هل تتذكر المرّة الأخيرة التي تشاجرنا فيها ؟ »

اكفهر وجه دومنيك وقال :

« هل ستقذفني بحجر، كما فعل ترويلوس ؟ »

شعر بيريغرين باضطراب وأخفض نظره، فاستعاد دومنيك وعيه وقال :

« اصعدي، يا لورا. »

صرخت كليوباترا في سخرية :

« سآتي معك، يا فارسي الباسل ! »

فقال دومنيك بعدما أقلعت السيارتان :

« يستحقان أن يقعا في الهاوية ! »

وللمرة الأولى تساءلتْ لورا ما إذا كان دومنيك يهمه أمر كليوباترا. اذ لاحظت أنه انزعج من ذهابها مع بيريغرين.

خلال الطريق، ظلّ صامتاً. السماء تلبدت بالغيوم وهطل المطر. وأدركت لورا عندما توقفت السيارة أمام المنزل، أنّ الربيع لم يصل بعد الى بانسيون.

٥- طفل نائم... في قلبه.

وبعدما وضعت نيكولا في سريره، توجّهت لورا كالعادة الى غرفة ابنة عمتها لتفيدها بتقرير مفصل حول حالة الصبي وتطوراته وقالت :

« نيكولا نائم الآن. كان النهار مرهقاً بالنسبة إليه ».

كانت كليوباترا تنتظر فرصة كهذه لتغضب وتقول :

« نيكولا ولد مزعج وأنت لا تفعلين شيئاً من أجل تحسين العلاقات بينه وبين عمه دومنيك ! وأنت أيضاً، اعتقد أنك تفضلين بيريغرين ولا تخفين أحاسيسك هذه. »

أصبح الحقد الذي يشعر به الولد تجاه عمه الكبير قضية مزعجة حقاً. لكن هل يصح إجباره على محبة شخص ما خدمة لمصالح الغير ؟ حاولت لورا مرّة أخرى أن تشرح هذا الأمر لابنة عمتها التي كانت قليلا ما تصغي

اليها، قاتمة الوجه، تدخن وهي ممدّدة في كسل على سريرها، وكررت قولها ثانية :

« أنت تفضلين بيري، أليس كذلك ؟ »

« في الحقيقة أشعر بارتياح كلّما وجدت نفسي مع بيري. تصرفه الصبياني أقل رعباً وارهاباً... هذا كل ما في الأمر. »

« أرجو أن يكون ما تقولينه صحيحاً. لا تكذبي عليّ يا لورا، لأنني اعرف أشياء كثيرة عنه، هل فهمت ما أقصد ؟ »

ولورا التي اعتادت أن تعامل من قبل كليوباترا كفتاة مسالمة، غير مؤذية، أو منافسة، فوجئت بكلام ابنة عمتها وراحت تقهقه وتقول :

« يا إلهي، أنت تغارين من دون شك ! »

انتفضت كليوباترا في سريرها وقالت :

« نعم، ومهما يكن من أمر، فأنا لست معتادة أن أتقاسم حب رجل مع امرأة أخرى ! »

أكدّت لها لورا قائلة :

« صدقيني، يا كليوباترا، انا لا أريد أن أحظى بحبه ولا أنوي ذلك ابداً. صحيح أن بيري يتمتع بجاذبية معينة، لكنني لا استحسن تصرفاته اطلاقاً. »

« إذن، قلبك يخفق لدومنيك ؟ »

« يا إلهي، ما بالك يا كليوباترا. لماذا تصرين على أني متعلقة بأحدهما ؟ الاثنان مليئان عقداً ! يكفي ما سأواجهه من مشاكل اذا حاولت العيش في هذا المنزل بوجودهما... »

هدأت كليوباترا وراحت تتأمل بامعان ابنة خالها مدّت لها يدا كسولة وشدت في مزاح على طرف فستان لورا وقالت :

« هذا الفستان يليق بك ويملأ جسدك النحيل... وشعرك بدأ يتضح أكثر... قال لي بيري بعد ظهر اليوم ان النساء مثلك يوقظن لدى بعض الرجال حب العطف والوقاية. لا شك أنه يلمح بذلك إلى دومنيك. والظاهر أنّ سيد المكان إذا أحب مثلك... لا تنخدعي، يا حبيبتي. إنه يشبه والده، لأنه يتمتع ببعض الهوس ... ... والهوى المضاد

للعقل. انه يعتبر نفسه متمتعاً بروح الفروسية، وتكونين على خطأ اذا وهبته قلبك.»

هذه السخرية السهلة لم تعجب لورا التي قالت فوراً:

«لا يجب أن تهزأي بالروح الفروسية التي يتمتع بها دومنيك. ألم يبرهن عنها عندما أراد في الماضي أن يستدرك الخطأ الذي ارتكبه ترويلوس فأصلحه؟»

رمقت كليوباترا ابنة خالها بنظرة براقة ومرحة وقالت:

«الظاهر أنك على معرفة واسعة بالفضيحة الصغيرة التي حدثت في الماضي! لم يقم دومنيك إلاّ بواجبه في أن يعترف بابنه.»

احتجت لورا قائلة:

«لا تقولي إنك مقتنعة جداً بما أخبرك به ترويلوس. أنت تعرفين جيداً أن قصته خاطئة.»

لا شك أن احتجاج لورا قد فعل فعله في نفس كليوباترا التي لم تحاول الاستمرار في مناقشة الموضوع واكتفت باطلاق زفرة عميقة. فسألتها لورا فجأة:

«كم ستبقى هنا في بانسيون؟»

«سأبقى أنا قدر المستطاع. وبفضل بيري لا أضجر هنا. وأنت؟ هل أنت مشتاقة للعودة إلى غرفتك الحقيرة؟ لن تجدي فرصة كهذه، يا لورا. هنا، لديك غرفة، وتأكلين. . . وطبعاً اذا استقررت أنا هنا بشكل نهائي، فستكونين ضيفة عندي.»

«هل تنوين الاستقرار هنا مع بيري؟»

«كلا، ليس مع بيري. عليه أن يتغير قبل أن أقتنع به. لكني أنوي استمالة عواطف السيد الكبير. صحيح أن بيري يعجبني اكثر يوماً بعد يوم، لكن ماذا أستطيع أن أفعل. عندما يكون المرء في حالة المطالب، فلا يمكنه الاختيار!»

ذهلت لورا لهذه الوقاحة المتطرفة وسألت:

«كيف بامكانك تحمّل الزواج من دومنيك وأنت تفضلين بيري وتحبينه؟»

ابتسمت لها كليوباترا ابتسامة متسامحة. كم تبدو لورا فتاة صغيرة وغير ناضجة!

«إذا تمّت الأمور كما أرغب، فلن أكون بحاجة إلى التخلّي عن بيري. . . . آه، يا لورا، ارجوك، لا تنظري اليّ كالفتاة المصدومة! أنت تغيظينني في. . .»

صوت قرعٍ على الباب جعل كليوباترا تتوقف عن الكلام في الحال. وقالت:

«نعم؟»

صرخ بيريغرين من وراء الباب:

«كليوباترا، هل ترتدين ملابسك؟»

«لا تدخل، انني برفقة لورا!»

«البسي بسرعة. سنخرج في المساء.»

«اتفقنا!»

وما هي سوى لحظة حتى كانت كليوباترا خارج السرير فأمسكت بيد لورا وقالت:

«سامحيني يا عزيزتي. فيا قلته حتى الآن تفاهات ناتجة ربما عن عراكي مع بيري لدى عودتنا من النزهة. إنه يذكرني بتروي تماماً. هكذا كنت أتعارك معه بالطريقة نفسها، وذلك رغبة في التصالح من جديد.»

«أنت تحبين بيري، أليس كذلك.»

اكتفت كليوباترا بالضحك، ثم قالت:

«هيا، اخرجي الآن من غرفتي. عليّ الاسراع بارتداء ملابسي وتزيين وجهي لأبدو جميلة كملكة.»

خرجت لورا من الغرفة ولم تفاجأ عندما رأت بيريغرين في آخر السلالم. فجمدت لورا مكانها وقال لها بلهجة ناعمة:

«لا تصرخي! أخي الكبير قريب من هنا. فهو في مكتبه الآن. وهذه النزهة التافهة جعلته متوتر الأعصاب. وصباح اليوم كان السبب في مقاطعة عناقنا، هل تذكرين ذلك؟»

أجابت لورا بجفاف:

« أعتقد أنك تسلّيت ما فيه الكفاية، اليوم. »

أجابها ساخراً :

« أنت تتكبرين عليّ من جديد، على ما يبدو ! »

ارتفع صوت دومنيك، الواثق من نفسه، في الممر قائلاً :

« أما زلت تلعب دورك الكريه، يا بيري ؟ تعال اذن الى هنا، أريد التحدث إليك. أما أنت، يا لورا، فاذهبي الى غرفة نيكولا، ربما احتاج اليك قبل أن يحين موعد العشاء ».

هذه اللهجة القاطعة جعلت الاحمرار يعلو وجه الفتاة. فدومنيك يعاملها كمجرد خادمة. إنها تفضل وقاحة بيريغرين على هذا الاحتقار.

أخفضت لورا رأسها وراحت تتسلّق السلالم بحزن، بينما اغلق الشقيقان باب المكتب وراءهما.

وبدأ دومنيك حديثه مع بيريغرين بعد أن سكب لنفسه كأساً وقال :

«اسكب لنفسك كأساً ودعنا نتحدث بهدوء ».

سكب بيريغرين كأساً له وجلس في زاوية المقعد وراح يجول نظره في الرفوف المليئة كتباً لا يقرأها أحد. لم يسبق له أن شعر بارتياح داخل هذه الغرفة التي أصبحت تلقائياً مخصصة لأخيه.

« بيري . . . ، أنا لا أريد الشجار معك. . . لكن يجب عليك أن ترى الفرق بين الانتصارات السهلة وبين الضيوف لدينا. »

« أنا لا اؤذي أحداً من مدعوينا، يا دومنيك. أما لورا، فلا شك أنها فرحة لأني أبدي لها اهتماماً. لكنها ليست تلك المرأة التي تجذب الرجال. »

سأل دومنيك بلهجة هادئة :

« هل تعتقد أنك الرجل الذي تحلم به أي فتاة صغيرة ؟ »

لا شك أن دومنيك يعرف أخاه تمام المعرفة ولم يكن في استطاعة بيريغرين انكار ذلك، فأسرع بالاعتراف قائلاً :

« حسناً، حسناً. لقد تصرّفت خطأ، ماذا تريد أن أفعل ؟ ميريام دلّلتنا كثيراً خاصة ترويلوس وأنا. كان يجب عليك أن تتزوج. وهكذا يصبح في البيت امرأة، وبالتالي نضطر إلى مراقبة تصرفاتنا. فتختلف الأمور كثيراً وربما يقوم الجيران بزيارتنا. . . »

ابتسم دومنيك غصباً عنه وملأ كأسه من جديد.

« صحيح أنني أهملت واجباتي. كان يجب علينا أن نعيش حياة أكثر تطوراً. »

« وربما أصبح لدينا ارث. لكن ما زال هناك حظ بذلك، يا دومنيك. أما إذا كنت مصراً على البقاء عازباً، فسيرث نيكولا ابن ترويلوس، سيادة بانسيون عنك. »

أجاب دومنيك حالماً :

« لن يعود الأمر كما هو الآن. »

« بل إنه الحفيد الوحيد ومن السلالة نفسها. »

« دعنا من هذا الأمر الآن. . . في الوقت الحاضر، أود أن أنبهك الى شيء واحد، لن أسمح مطولاً بتصرفاتك الوقحة والبذيئة تجاه ضيفتنا الصغيرة. »

كان صوت دومنيك مهدداً وفي عينيه الزرقاوين جليد.

أضاف قائلاً :

« هل فهمت كلامي جيداً ؟ »

« هذه الفتاة توقظ لديك غريزة الأبوة. لقد سبق أن قلت هذا الكلام لكليوباترا بعد ظهر اليوم وهذا لم يعجبها قطعياً. »

وظهر بريق فرح وإعجاب في نظرات بيريغرين، إذ انفتحت امامه افاقاً جديدة لتسليات جمة.

قال دومنيك في غيظ وهو يرمي حطبة في النار :

« دعني من تفاهاتك ! فهمت ؟ »

فرح بيريغرين لأنه نجح في مشاكسة اعصاب اخيه وقال :

« لا تقلق، لا يجب على نعجتك أن تخاف مني، ما دامت الأرملة الجميلة هنا. آه، كليوباترا هي فعلاً امرأة رائعة ! وحتى معك، ما رأيك ؟ قل لي، يا دومنيك، ألم تفكر في اغراء أرملة اخيك ؟ »

ذهب بيريغرين بعيداً في حديثه، واشارات الغضب عادت تحتل وجه دومنيك من جديد. فرفع نحو أخيه معصميه ونبهه في شدة :

« أعرف أنك تسلّ في إغضابي. حذار يا بيري، فأنت لم تعد طفلاً.

وكفاك سخرية ! أنا سئمت لعبتك وتصرفك المقيت. لقد عشت حياة سهلة حتى الآن. »

« سهلة جداً ! أنا الذي أنزف دماً وعرقاً كل يوم في غبار المقلع ! »

« لا تبالغ. لا أنت ولا تروي عرفتما فعلاً معنى الأعمال القاسية التي يقوم بها العمال. كان يجب على والدنا أن يلقنكما كما لقنني، معنى المعاناة وقسوة العمل والمسؤولية. لو فعل ذلك لربما أصبحت اليوم انساناً ناضجاً ومتعقلاً ! لم تهتم في جدية بمؤسستنا كما يجب. »

« ولماذا أفعل ذلك ؟ أنت هو الوريث الوحيد للمؤسسة ! »

« أعرف أن ذلك يجرح شعورك. غير أني المسؤول الوحيد. ألا يكفيك المعاش المرتفع الذي تتقاضاه كل شهر لقاء عملك. ماذا تريد أكثر من ذلك ؟ هل نسيت كم مرّة دفعت عنك ديونك ؟ ليس لديك من سبب للشكوى أو التذمر. »

« بما أنك ضممت اليك حصة تروي، فبإمكانك أن تكون أكثر سخاء. »

« تروي ترك ابنا. هل نسيت ذلك ؟ »

« هل قررت إذن أن تهتم بالصبي ؟ ستفرح والدته بالأمر. لكن للأسف، لم يستلطفك نيكولا. »

قال دومنيك في مرارة :

« أنني اخيف الصغار، على ما أعتقد. »

وفي هذه اللحظة انفتح الباب وصرخت كليوباترا باستغراب :

« أنت هنا ! وفي هذا الوقت أنا جالسة وحدي في قاعة الاستقبال أملّ حتى الموت. »

وفي فضول راحت تتأمل الرجلين. حول ماذا كانا يتكلمان، يا ترى ؟ فقال :

« من الذي يخافك يا دومنيك ؟ هل هو ابني، تصرّف معك مرّة أخرى في حماقة، أم أنّ الموضوع يتعلق بلورا ؟ قالت لي الآن انك طردتها بعنف وقساوة. »

« نعم. . . صحيح هذا الكلام. »

كانت لهجته تحتوي على ندم واضح.

« إذن، ستتصالحان الآن. وها هي على عتبة الباب. »

كانت لورا تقف على عتبة الباب، تتردد في الدخول. فقالت لها كليوباترا بوقاحة :

« ادخلي، يا حبيبتي، لن يأكلك سيد المكان. »

تقدمت لورا بضع خطوات من دون أن تنظر إلى دومنيك. كانت تبدو بملامح فتاة صغيرة، في تنورتها المكسرة وعقدة شعرها الناعم. ظهر على وجه سيد بانسيون بريق حنان ناعم، فقال مقترحاً :

« دعونا نذهب إلى قاعة الاستقبال. »

ارتاحت لورا لأن دومنيك لم يعتبر أنه من الضروري أن يعتذر لها عن كلماته الغاضبة.

وفي هذا المساء، اعتذرت ميريام عن عدم امكانها تحضير عشاء ملائم بسبب نزهة الهواء الطلق. فأسرع بيريغرين في مغادرة الطاولة وقال :

« كليوباترا، تعالي، سنجد عشاء أفضل في ميربنبورث. هل يريد أحد مرافقتنا ؟ دومنيك، تفضل الانسحاب الى مكتبك، على ما أعتقد. وأنت، يا لورا ؟ »

ترددت لورا قليلاً. من جهة لا تريد تعكير الجوّ على ابنة عمتها وبيريغرين. فلن تسامحها كليوباترا إذا قبلت دعوته. وفي جهة أخرى، فهي حذرة من البقاء وحدها مع دومنيك القاتم الحزين. نهض دومنيك هامساً باعذار غامضة، فقد هان بالتالي على لورا الاختيار. فقررت البقاء في بانسيون.

ران صمت ثقيل فجأة على المنزل. وندمت لورا لأنها لم تجلب من غرفة المكتب كتاباً تطالعه في هذا الوقت الفارغ. في الوقت الحاضر، لا تجرؤ على الدخول ما دام دومنيك قد اقتحم المكان قبلها. لذلك قرّرت أن تتفقد نيكولا والنوم باكراً.

توقفت في البهو لتداعب رويلي، كبير الكلاب. ولما نهضت واقفة، رأت دومنيك أمام عتبة باب غرفة المطالعة.

« رويلي يحبك كثيراً. يا لهذا الكلب العجوز المسكين، انه لا شك

بحاجة إلى عاطفة وحنان مثلنا جميعاً. »
« هل تنقصك العاطفة والحنان ؟ »
« آه ! . . . الظاهر أنه لا ينقص الانسان ما لم يحصل عليه أبداً، لكن هذا خطأ، ما رأيك انت ؟ »
« حتى يحصل المرء على شيء ما، يجب أن يعطي شيئاً بالمقابل. »
« صحيح ، يا آنسة سميث. »
« يشعر الواحد عندما يعيش هنا في بانسيون، أنه منزل للرجال.. هذا واضح تماماً. الا تتذكر والدتك ؟ »
« بل. أتذكرها جيداً. كان عمري ثمانية أعوام عندما توفيت. »
تهيأ لها فجأة أنها تفهم الآن تصرف دومنيك الغريب أحياناً. وراحت تتخيّله ذلك الولد الذي ينقصه الحب والذي ترعرع خلافاً عن أخيه لانه البكر.
تجرأت في سؤاله :
« كيف كانت والدتك ؟ الم يعرفها اخواك ؟ »
« كلا. لأنها ماتت لدى ولادة بيريغرين. وترويي لم يكن يبلغ من العمر الأ ثلاث سنوات. سأحدثك عنها يوماً ما. . . هل أنت ذاهبة الى فراشك ؟ »
« نعم. لكن عليّ أن أرى نيكولا قبل ذلك. احب ان اراه ينام. »
طلب دومنيك منها اذا كانت تسمح له في مرافقتها، فاندهشت ووافقت في تهذيب وقالت :
« عادة، لا يستيقظ. يكفي الآ نقوم باي ضجة. وهذا المساء كان متعباً للغاية. »
« أنت ايضا تبدين متعبة. نزهتنا لم تكن ناجحة. »
ضوء شحيح كان مشتعلاً قرب سرير نيكولا. راحت لورا ودومنيك يتأملان الصبي النائم. ولاحظت لورا أن ملامح دومنيك حزينة واليمة. هل يأمل في منح نيكولا الحنان الذي لم يعرفه؟
همست تقول :
« انه يشبهك. »

تقلّب الصبي في نومه، فرجع دومنيك بعنف الى الوراء خوفاً من اخافة الولد فيما لو استيقظ. انحنت لورا فوق الصبي وراحت تهمس بكلمات مريحة. فجأة فتح نيكولا عينيه وقال فرحاً :
« مومو! ».
وحين لمح الشبح الطويل في الظلام سأل :
« من هذا؟ »
« انه عمك دومنيك. جاء ليتمنى لك ليلة سعيدة. »
كانت تأمل الآ يبدأ نيكولا بالصراخ. واقترب دومنيك وجلس على طرف السرير قائلاً :
« هل تعرف أنني عندما كنت صبياً صغيراً، كنت أنام مكانك؟ »
دهش الولد وقال :
« كنت تنام هنا، في هذا السرير؟ »
لم يرفض وجود دومنيك كالعادة. هل لأنه لم يستيقظ تماماً؟ أم انه يكتشفه في منظار آخر وهو يتخيله صبياً صغيراً؟
راح دومنيك يلامس شعر الصبي ويقول :
« نعم. وهذا الحصان ملكي. »
« كنت تمتطيه، يا عمي؟ »
أخذت لورا تضحك بالرغم منها وهي تتصوّر دومنيك فوق هذا الحصان الهزاز. فقلدها نيكولا وقال دومنيك :
« لا شيء يضحك في الامر. في ذلك الوقت كنت فارساً قوياً، صدقني يا بني. وفي أحد الايام سقطت على المغسلة وكسرت احد الاباريق الجميلة! »
« هل وبختك مربيتك؟ »
« لم يكن لي مربية. لكن والدتي لم تكن توبخني. »
تجهّم وجه الصبي وقال :
« حظك كبير يا عمي. غالباً ما تغضب كليوباترا مني. »
« ليست الغلطة دائماً غلطتها، أليس كذلك؟ لماذا لا تدعوها « ماما »؟ »
« هي لا تريد ذلك. »

« هل تعرف لماذا؟ »
أجاب الولد بلا مبالاة :
« كلا. أريد منك يا عمي دومنيك أن تخبرني قصة. »
« يجب أن تطلب ذلك من مومو. »
« كلا. أنت، اخبرني قصة، أرجوك. »
كان الولد مصراً فرمقت لورا دومنيك باشارة تشجيع. وفي لهجة مترددة، بدأ يخبره قصة الحوريات. كان الدور جديداً بالنسبة إليه، فكان يشعر بالانزعاج، لكن الولد ظلّ يحدق فيه بعينين ساحرتين، مما جعل دومنيك يتحلى بالثقة والعفوية. وبعد قليل تغلّب على نيكولا النعاس، فغط في نوم عميق.
وضع دومنيك عليه الغطاء وطبع على خده قبلة وخرج من الغرفة وراء لورا.
قالت وهي ترمقه بنظرة برّاقة :
« هل رأيت! لقد تصرّفت كما يجب! »
كان يبدو سعيداً ومتحمساً، لكن فجأة عاد الحزن يخيّم قلبه فقال :
« أنا متأكد من أني سأفقد غداً ما ربحته الآن. من المستحيل أن أتوصّل يوماً الى منافسة بيري ».
« لا تبال بها! إنه يبحث عمداً أن يبعد نيكولا عنك. »
« أعرف ذلك جيداً. لكني كنت أجهل أنك لاحظت ذلك. »
قالت في خيبة أمل :
« صحيح، يا دومنيك؟ لقد أبديت رأيي بأخيك بتسرّع وأرجوك ألاّ تقلق عليّ. أنا متأسفة أنك لا تثق بي تمام الثقة. »
حدّق بها في نظرات حالمة. فظهرت تجعيدة قلقة على جبينه وقال :
« ربما قدّرتك بأقل من الحقيقة. لكن، يا لورا، اذا تكلّمت معك بقساوة بعد ظهر اليوم، فلا يجب أن تعتقدي أن... »
قاطعته لورا بابتسامة لطيفة وقالت :
« لا أعتقد شيئاً، يا دومنيك. لكن يتهيأ لي... إني اعرفك أكثر الآن مما كنت عليه قبل هذا الحديث. »

« حسناً يا لورا، وفي المرّة المقبلة عندما أتصرف برعونة، فلا ترددي في تقليم أظافري. تصبحين على خير! »
اختفى من دون أن يتسنى للورا أن ترد عليه التحية. فتوجهت الى غرفتها في الحال.
كانت تخوّفات دومنيك ثابتة. ومنذ صباح اليوم التالي، لم يبق أي اثر للنصر الصغير الذي حققه دومنيك تجاه نيكولا. وبيريغرين يقوم بكل ما في وسعه ليبقي الصبي من جهته. فقرّرت لورا أن تحدّث كليوباترا بهذا الامر.
« يجب أن تطلبي من بيري ألاّ يعرقل أخاه بشكل مستمر. »
« ماذا تقصدين بذلك؟ نيكولا يفضل بيري لأنه يشبه والده. »
« الا تودين أن تتحسّن العلاقات بين نيكولا ودومنيك؟ والطريقة الوحيدة لتحقيق ذلك هي التحدث الى بيريغرين في الأمر. »
« في الحقيقة، ليس لهذا الأمر اهمية كبرى كما كنت أتصوّر من قبل. دومنيك رجل عادل ويجب الاعتراف بمزاياه العديدة. وتصرّف نيكولا تجاه دومنيك لن يؤثر على القرار الذي سيتخذه سيد المكان تجاه الصبي. »
كانت على حق. وبالرغم من حقد نيكولا على دومنيك، فالصبي فرح ومسرور بوجوده في بانسيون. ولا يخفي الاعلان بفخر واعتزاز أن المنزل هنا منزله، وأنه سيظل فيه الى الابد. ولورا نفسها بدأت تشعر بحنان تجاه بانسيون، الذي بدا للوهلة الاولى غريباً وغير أليف. لكن، إذا كان لنيكولا عذر ودوافع للاعتقاد بأن بانسيون مسكنه الوحيد والابدي، فالامر يختلف بالنسبة الى لورا، التي يجب عليها المحافظة على عدم التعلق ببانسيون كثيراً. وبعد بضعة أسابيع، لن تعود كليوباترا في حاجة اليها وسيصبح المنزل وسكانه بالنسبة الى لورا ذكريات ماضية.
وفوجئت لورا بالتفكير في احتقار وقرف بمحل الازهار وغرفتها الصغيرة. لن تتحمّل فكرة العودة الى هناك. تأمل مثل صديقاتها أن تزدهر وتتفتح في الحياة عن طريق الزواج أو الوظيفة.
وفكرت لورا بصوت مرتفع كعادتها :
« ربما، من المستحيل معرفة النشوة وفرح القلب، ما دمت وحيدة؟ »

سمعت أصواتاً خلفها في ساحة بانسيون حيث كانت جالسة تتمتع بشمس نيسان. واعتقدت أن ميريام هي القادمة. لكنها سمعت صوت دومنيك يقول :

« هل اكتشفت هذه الحقيقة لتوك؟ »

تلعثمت وقالت :

« عدت باكراً، اليوم. »

« ذهبت لشراء بعض الاشياء ولا داعي للعودة الى المقلع قبل الغداء. لماذا تشعرين بانزعاج وعدم ارتياح كلّما كنت معي يا لورا؟ »

لم تجرؤ على مجابهة نظرته، وكي تراوغه، قطفت بعض العشب. لم يسبق أن أزعجها أحد، ما عدا ميريام، في هذه الزاوية المعتادة حيث تأتي لتحلم وتدع مخيلتها تشرد. جلس دومنيك قربها وكتفه التي لامست كتفها تشعرها بنوع من التوتر الحميم.

صرخت في صدق وتهذيب :

« لا أعرف ».

هذه العفوية جعلته يبتسم فقال :

« أنت تتقاسمين مع نيكولا عدم الثقة أم الحذر؟ »

رفعت عينيها نحوه في سرعة وصرخت في حدة عنيفة :

« كلا، ثقتي بك كبيرة وبامكاني أن أضع حياتي بين يديك من دون أي تردد. »

« يا لهذا التملّق والاطراء! »

قهقهت لورا وقالت :

« قلت أموراً تافهة، أليس كذلك؟ اتكلّم مثل بطلة قصة بالية... وأنت تكلمني غالباً كما تكلّم نيكولا. هذا هو الذي يزعجني في الأمر. »

« بما أني غير معتاد على معاشرة النساء واستضافتهن في منزلي لذلك لست قادراً على صياغة فن الحديث. »

وكان دومنيك منزعجاً ومتوتراً يعبث بشعره وهو يتألم.

فقالت لورا :

« أنت لا تعامل كليوباترا كما تعاملني. »

« لست في حاجة لأن أتصرف بتأن معها. ردّدي ما كنت تقولينه عندما وصلت. »

« كنت أقول إنّ النشوة وفرح القلب لا يعرفهما الانسان الوحيد. »

« أنا لست الانسان الذي يوحي بالعاطفة. »

صرخت لورا قائلة :

« لا يجب أن تفسد حياتك من أجل الماضي! »

ندمت على ما قالته. وغابت الابتسامة عن وجه دومنيك الذي قال :

« أنت اذن على علم بما حدث في الماضي! أفضل يا آنسة سميث الا تدخلي في شؤوني. »

بقيت مذعورة، محمرة الخدين من الخجل. ووقف دومنيك تاركاً اياها من دون أن تنبس بكلمة.

بعد هذا الحادث بدأت لورا تتحاشى الوجود معه. وذات يوم قالت لميريام :

« لا أعرف كيف أتصرف مع دومنيك. في داخله رجلان. »

« أنت قلقة على مصير نيكولا، أليس كذلك؟ »

مشاكل آل تريفاين بدأت تزعجها، لكن بما أنّ الفرصة مناسبة قررت لورا أن تتدخل من أجل الولد، اذ لا يجب اهمال تأثير ميريام على أهل المنزل. فقالت :

« الا تعتقدين أن لنيكولا حقوقه الشرعية؟ »

« بكل تأكيد. انه ابن تروي والعجوز زكاري كان يريد حفيداً باصرار... »

ارتفع صوت وراءهما، وقال دومنيك في جفاف :

« من الافضل أن تناقشا مصير نيكولا معي. »

دافعت لورا عن نفسها قائلة :

« كنت اكتفي بالقول إن نيكولا يحمل اسم عائلة تريفاين وأنه آخر أبناء العائلة. »

« صحيح. لكن لا تنسي أنه باستطاعتي أن أتزوج يوماً ما. »

« طبعاً... اني... اني... »

ابتسم وقال :

« هل طلبت منك كليوباترا أن تفتحي هذا الموضوع مع ميريام؟ »

غضبت لورا فجأة ونظرت اليه في وقاحة وقالت :

« أبداً! إنها لا تحتاج لمن يتحدث عنها. »

قال ساخراً :

« آه انني اصدقك تماماً! »

٦- الأحلام لا تضر أحداً !

عاد دومنيك ليفتح الموضوع نفسه في المساء. كانت كليوباترا قد رافقت بيريغرين كالعادة في سهرة في ميريبنبورث ووجدت لورا نفسها وحيدة مع دومنيك. تناول طعام العشاء كالعادة بسرعة وانتظرت لورا منه أن يغادر الطاولة من دون الاهتمام بها. لكنه لم يفعل ما كانت تتوقعه، إنما أبعد كرسيه قليلاً إلى الوراء ليجلس في ارتياح وراح يراقب الفتاة بصمت ثم قال فجأة :

« ألا تحبين أن ينظر المرء إليك بينما تأكلين ؟ »

« كلا. لا أحب ذلك. إذ أشعر باضطراب وتوتر. »

« يخيّل إليّ أني أثير توترك في صورة دائمة. »

رمقته لورا بنظرة استغراب وأجابته بصدق :

« فعلاً. أشعر أحياناً بالتوتر معك. »

« ولا تشعرين بذلك مع أخي بيري ؟ »

« كلا، لأني لا أخاف أن أصده وأعيده إلى مكانه. »

« ومعي، لا تجرؤين على ذلك ؟ هل هذا بسبب كبر سني ؟ »

« أبداً ! لست مسناً في الخامسة والثلاثين من العمر ! »

« لا، طبعاً. لكن فارق خمس عشرة سنة بيننا. »

« بيننا ! وأي أهمية لذلك ؟ »

« لا أحد يعرف. ربما. . . »

فوجئت بهذا الرد وقالت :

« العمر لا يلعب دوراً هنا. »

« أين ؟ »

« عندما أشعر بالانزعاج كلّما وجدت نفسي معك. . . إنك تفعل كل ما في وسعك لتشوش عقلي، يا دومنيك ! »

ارتسمت على وجه دومنيك ابتسامة ساخرة تشبه ابتسامة بيريغرين هذا لا شك فيه. . . فقبل عشر سنوات لا شك أنه كان يشبهه تمام الشبه.

همست لورا بتوتر بسيط :

« أرجو ألاّ ترغم نفسك على البقاء معي. أعرف جيداً أنك مشغول في المساء. »

« لن تتهربي بسهولة مني. لدي حديث معك. أرجو أن تسرعي في انهاء طعامك. »

تناولت ملعقتها بينما كان دومنيك يتمايل على كرسيه متارجحاً ثم سألها فجأة :

« هل انتهيت ؟ »

ومن دون أن ينتظر منها جواباً، نهض، فتبعته لورا الى البهو المضاء بضوء شحيح يكشف فقط عن تمثال حصان القارن.

قال دومنيك :

« إن حصان القارن هذا يفتنك، كما هي الحال مع ابن أخي، نيكولا. هيا، اتبعيني إلى المكتب. »

« عليّ أن أرى نيكولا، الآن. »

«كلام تافه ! إنه ينام من زمان. هل تخافين مني ؟ »

أسرعت في الدفاع عن نفسها قائلة :

« ماذا تتصور ؟ »

ابتسم دومنيك ابتسامة واسعة ودخل غرفة المطالعة تتبعه لورا. كانت نار المدفأة تنشر جواً حميماً، فظهر توترها في الحال. وقالت باستغراب :

« آه، هنا أيضاً تمثال الحصان القارن. لم ألاحظه من قبل. »

« إجلسي، يا لورا، أريد أن أحدثك عن ابن أخي نيكولا. »

جلست لورا على كرسي قرب المدفأة وانتظرت. ولما لم يقرر البدء بالحديث بادرته بقولها :

« ماذا تريد أن تعرفه ؟ لا شك أن نيكولا صبي لطيف جداً. ومع الوقت، سيتغلّب بكل تأكيد على. . . على الخجل الذي توحي له به. »

أجاب موافقاً بسخرية وهو يجلس على الكرسي وراء مكتبه :

« يا لهذا الكلام المتقن ! وما تسمينه خجلاً، يبدو لي أنه واضح صريح، لكن في كل حال، لا يمكننا أن نفعل شيئاً بهذا الصدد. فما هي واجباتي نحوه حسب رأيك ؟ »

اندهشت لورا قائلة :

« هل تطلب رأيي أنا ؟ »

« هل ترفضين أن تعبّري عن رأيك مع أنك تطرحينه على ميريام بكل طيبة خاطر ؟ »

قالت باحتجاج :

« رأيي. لا أثر له ! يجب أن تناقش هذا الموضوع مع كليوباترا. »

« سأناقش معها أيضاً. والآن، يا لورا، تدفعينني إلى الرجاء. صباح اليوم كنت تقولين إن عائلتي لها واجبات نحو ابن تروي ؟ »

« ألا توافق على ذلك ؟ »

« بل، طبعاً. حاولت أن أعيد العلاقات بيني وبين تروي بعد وفاة والدنا، لكنه كان عنيداً وحقوداً مثل والدي. لو كنا نعرف أن تروي أنجب ولداً لتغيّرت الأوضاع جذرياً، إذن ما هي واجباتي، حسب رأيك. »

ترددت لورا مطولاً في الرد. كانت جالسة على كرسي، معقودة الذراعين فوق ركبتيها، وتبدو كتلميذة مدرسة. ودومنيك يتأملها في حنان...

« لا أعرف ما أقوله. اني... اني أعتقد أنّ لديك مسؤولية تجاه نيكولا بعد موت والده. من الصعب على أرملة شابة أن تربي ابنها وحيدة. »

«ان ابنة عمك امرأة جذابة جداً، ولن تبقى وحيدة مطوّلاً».

عارضت لورا في صوت ناعم :

« الصبي يمكنه أن يعرقل لها أمر زواجها ثانية. »

« هل تعتقدين انه إذا أمنّت مستقبلاً لنيكولا، فانني بالتالي أسهّل عليها الزواج من جديد ؟ »

« وبالتالي لن يكون لديها شيء تطلبه من رجل آخر. »

صرخ دومنيك بعنف مفاجىء وقال بغضب :

« أنتما ... خططتما كل شيء. »

وفي طريقة آلية، أخفى دومنيك بيده الكدمة على وجهه، فشعرت لورا نحوه بقليل من الشفقة وقالت :

« لا تبالي جداً بالكدمة في وجهك، يا دومنيك، لا أحد يلاحظها. »

أكّد في حزن :

« ما عدا نيكولا. »

ابعد يده واستراح في مقعده فقالت :

« في البداية، لا شك أنه ذُعر لوجود الكدمة. لكن الآن، يعتقد أنك قرصان وأن قرصاناً آخر قد هاجمك. »

قهقه دومنيك وقال :

« آه يا لورا، أيتها الفتاة الصغيرة، اني معجب بقصصك مثل نيكولا ! أخشى أن تكوني قد اخترعت هذه القصة أنت بالذات. القراصنة، وتمثال حصان القارب... ستبدو لي بانسيون فارغة عندما تغادرينها. »

هذه الملاحظة الأخيرة أعادت الحزن إلى وجهها. كانت تحاول جاهدة منذ وقت غير قليل ألاّ تفكّر في الغد. غير أنها كانت تعرف أنّ عليها العودة إلى لندن متى تنظمت قضايا كليوباترا. كما كانت تعرف أيضاً أنها لا تشعر

برغبة في الرحيل من هنا.

أصرّ دومنيك قائلاً :

« يبدو لي أنك لا تصدقينني. »

انحنت لتحاول معرفة تعبير وجهه في الظلام حيث لجأ.

فاعترفت له بحزن :

« أنا الذي سيحْزن إلى بانسيون. »

« إذن بدأت تتعوّدين على تصرفاتنا الموحشة والوحشية يا لورا ! انني آمل أن أربي نيكولا هنا. »

فتحت لورا عينيها باندهاش وقالت :

« هذا رائع. نيكولا يحب بانسيون. لكن... كيف ستدبر الأمر ؟ هل تنوي تبنيه ؟ »

« لا... لديه أم وهناك وسائل أخرى. »

أحنت لورا رأسها تفكر بهذه الوسائل. الزواج ؟ هل ينوي الزواج من كليوباترا. لم تكن ترى إمكانية أخرى ؟ ودومنيك الجالس وراء مكتبه مثل استاذ مدرسة أخذ يراقب ردّة فعلها. وفجأة شعرت لورا بحزن عميق يحتلها. وقالت بصوت متعب :

« سبق إذن أن وضعت مخططاتك... »

لماذا كان مقتنعاً بوجوب استشارتها؟ ان آل تريفاين ليسوا بالأشخاص الذين يأخذون بنصائح الغير قبل التوصل إلى قرار نهائي.

وافق دومنيك على ما قالته.

« إذن ستحقق ما سبق أن خططت له، ورأيي لا فائدة له. »

شعر بخيبة أمل لسماع هذه الكلمات وفي الوقت نفسه تقلص وجهه القاتم. يا لمزاجه المتقلب. صحيح أنه مزدوج الشخصية ولن تفهم أبداً تقلبات مزاجه العنيفة.

همست تقول :

« سأذهب إلى فراشي. »

لم يحاول استبقاءها وتمنى لها ليلة سعيدة بلا مبالاة. غير أنه أضاف عندما تناولت كتاباً عن الرف في طريقها إلى غرفتها :

« أنت تحبين المطالعة، أليس كذلك ؟ باستطاعتك أن تأتي إلى غرفة المطالعة في أي وقت تريدين وخذي الكتاب الذي يعجبك. »

« شكراً. وحتى لا أزعجك، فلن أدخل المكتب في المساء. »

« أنت لا تزعجيني أبداً. سأبوح لك بسر. نادراً ما أعمل في المساء. وفي معظم الأحيان، أفك ربطة عنقي وأتصفح الالبومات العائدة إلى أيام طفولتي. وفي إمكانك الانضمام اليّ اذا أردت. »

كانت لورا قد فتحت الباب للخروج وقبل أن يتسنى لها الوقت للرد عليه، دخل بيريغرين وكليوباترا في ضجة إلى البهو. شاهدت كليوباترا لورا واقفة على عتبة المكتبة فسألتها :

« هل ما زال دومنيك هنا ؟ »

ثم دخلت من تلقاء نفسها إلى المكتب وقالت :

« آه، نعم، أنت هنا ! لقد أمضينا سهرة رائعة في إحدى الحانات الصغيرة الواقعة على شاطىء البحر، برفقة البحارة الذين يضعون الحلق في آذانهم. لو رافقتنا لورا لتخيلت نفسها موجودة بين أعزائها القراصنة. يجب أن تصطحبها معنا في إحدى الأمسيات، يا بيري ! »

« ليس وارداً أن تأتي لورا معكما، هل سمعتني، يا بيري ؟ »

كان دومنيك قد انتصب واقفاً وتكلم بلهجة قاطعة. اكتفى بيريغرين بالابتسام. فقالت كليوباترا في سخرية :

« وأي ضرر في ذلك ؟ لماذا تحمي ابنة خالي، بينما تدعني انا أذهب حيثما أشاء ؟ »

وفي هذه اللحظة بالذات بدا واضحاً لكليوباترا أنها قادرة على جذب الرجل الواقف أمامها. عيناه البراقتان وشفتاه الرقيقتان تشكلان دعوة مضمرة لاحظها دومنيك كلياً. ولاحظت لورا لعبته فقال دومنيك موجهاً حديثه إلى كليوباترا :

« أنت من طينة آل تريفاين نفسها. »

« طبعاً، فأنا من عائلة تريفاين، لكوني زوجة ترويلوس، شئت أم أبيت. »

تابع بيري هذا الحديث من دون أن يتلفظ بكلمة. لكن فجأة بدأ في

الهجوم وقال :

« وأنت، يا أخي العزيز، لم تضيّع وقتك سدى، أنت أيضاً ! هل كانت لورا العاقلة تساعدك في عملك ؟ »

أسرعت لورا في القول لتوقف كل التلميحات :

« كنت في صدد الذهاب إلى فراشي. »

أجابت كليوباترا بسخرية :

« وجه لورا الصغيرة مشع بعد هذه السهرة التي قضتها برفقة السيد الكبير. هل وصلنا في الوقت غير المناسب، يا حبيبتي ؟ »

قال دومنيك مازحاً :

« لم تستحسن ابنة خالك الشرف الذي أكنه لها. كانت في عجلة للذهاب إلى النوم... ولماذا لا تتناول كأساً ؟ »

قالت كليوباترا وهي تجلس في المقعد حيث كانت تجلس لورا منذ قليل :

« بكل طيبة خاطر. آه، هل ستذهبين حقاً إلى فراشك، يا لورا ؟ »

« نعم. إني أموت نعاساً. »

لم تكن ترغب في حضور العراك العادي للأخوين. لما توارت لورا عن الانظار، لحق بها بيريغرين. وفوجئت هي كيف تستسلم لعناقه... صحيح أنه لم يجذبها كثيراً بل كانت تشعر بفضول غريب لمداعبات الحب.

قال لها بعدما أبعدها عنه :

« والآن، هل غيّرت عواطفك تجاهي، أم أن السيد الكبير قد لقنك الدرس المطلوب. »

« دومنيك لا يتسلى في عناق أي كان من أجل قتل الوقت، يجب عليك أن تعرف ذلك تماماً ! والآن دعني أذهب إلى فراشي ! »

« هل خيّب أملك ؟ هذا واضح جلي. »

ثم عاد إلى غرفة المطالعة.

لا شك أن بيريغرين على حق. عندما كانت لورا تتناقش مع دومنيك لم تكن تعي رغبتها له. والغريب في الأمر هو انها عندما استسلمت لعناق بيريغرين، اكتشفت قوة عاطفتها وحبها لأخيه...

وظلت لورا التعيسة ممددة في سريرها وقتاً طويلاً والأسئلة لم تبارح عقلها. الأحلام لا تضر ما دامت لا تجتاح الحياة الواقعية. هذا ما كانت عمتها فلورا تردّده عليها. انها تشعر بحرية عندما تأخذها غيلتها الى قصص القراصنة الغريبة، لكن إياها واختلاجات القلب! ستكون على خطأ إذا وهبت قلبها لاحدهما.

وفي صباح اليوم التالي، عندما حملت لورا صينية الفطور إلى غرفة كليوباترا لتخفف عن ميريام، كانت كليوباترا في انتظارها بفارغ الصبر:

«إذن، اخبريني ما حدث بينك وبين دومنيك، مساء أمس.»

أجابت لورا في هدوء:

«لا شيء. حدثني عن نيكولا.»

تغيّر تعبير وجه كليوباترا في الحال ولم تعد تريد مناوشة ابنة خالها. فسألتها بالحاح:

«ماذا جرى من حديث؟»

«لماذا لا تناقشين قضاياك معه؟»

أعلنت بفخر واعتزاز:

«لأنني أكثر ذكاء معه. أدعه يقوم بالخطوات الأولى.»

«اعتقد أنه وصل إلى قراره النهائي.»

«وما هو هذا القرار؟»

وبدلاً من إرضاء فضول ابنة عمتها القوي، توجهت لورا نحو النافذة. كل صباح كانت تبحث عن تطورات الربيع، كما علّمتها ميريام. لقد بدأت النباتات وبعض الأزهار البرية تنبت ولذلك تفضّل لورا أن تبقى في بانسيون حتى فصل الصيف لتشاهد تفتح وازدهار الطبيعة كلياً.

«لورا! ما زلت تحلمين! ماذا قال لك دومنيك؟ هل ستجيبين على أسئلتي، أخيراً؟»

«انه يتمنى أن ينمو نيكولا ويترعرع هنا. وقال لي لديه مشاريع بهذا الصدد. هذا كل ما قاله.»

«أي مشاريع؟ لورا، أنا أكيدة أنك استطعت أن تنتزعي منه تفاصيل

أكثر...»

«ليس هذا من شأني.»

صرخت كليوباترا عالياً:

«صحيح، أنت تثيرين جنوني! كيف يمكن لاحد أن يكون في مثل حماقتك؟ الرجل المسكين لا شك أنه أراد أن تعلميه برغباتي. كان عليك أن تلمحي له بأني مهتمة باقتراحاته!»

في مزيج من توتر وسخرية كانت كليوباترا تريد تحريض لورا التي بقيت جامدة لا تبالي. فأضافت المرأة قائلة:

«بدأت أصدق أنه كان يبحث عن صحبته لقضاء بعض الوقت معك. هل يعاملك جيداً؟»

احمرّ وجه لورا في الحال وأجابت:

«لا أعرف!»

«آه، لقد أصبت الهدف جيداً! دومنيك هو أحد أنواع الرجال الذين يوقظون العواطف في قلب العذارى.»

وفي عقل لورا اندمجت العلاقة بين الحصان والفتاة العذراء، فزاد احمرار وجهها وراحت كليوباترا تهزأ قائلة:

«لا تتأثري، يا حبيبتي. ربما سأكون أنا بحاجة الى الاخ الكبير. ألم تفكري أن من المحتمل أن يكون لديه مطامع بي؟ وسنستفيد معاً بهذا التدبير، فهو في حاجة الى زوجة وأنا في حاجة الى أب لنيكولا.»

وفي صمت استقبلت لورا هذا التصريح. وانكمشت على نفسها ودخلت الى عالمها الداخلي، كما يحدث كلّما جرحتها الحقيقة. وبعد برهة من الوقت سيطرت على انطوائها وشعرت برغبة حادة في فهم موقف ابنة عمتها، فهمست تقول:

«كليوباترا، كنت أعتقد أن بيري وأنت...»

انتفضت كليوباترا منزعجة من هذا الحديث وقالت:

«كفى مناقشة! هذا الكلام لن يفيدنا كثيراً. هل تعرفين أن بيري ميال الى خوض مغامرة السفر والذهاب الى استراليا، كما فعل تروي؟ استراليا بلاد جذابة ومليئة بالاشياء الخلابة ولا تثير الملل مثل انكلترا العجوز. وأنا

الآن أحب العودة الى هناك بكل طيبة خاطر. »

« لا احد يمنعك من العودة أبداً! »

« وماذا أفعل بابني؟ أريد أن اؤمن له اولاً مستقبله. ان سيد باتسيون الكبير ربما ينوي أن يبقيني هنا. . . آه، لورا، لا تنظري اليّ هكذا! من الأفضل لك أن تذهبي وتتفقدي نيكولا. لقد وعده دومنيك أن يصطحبه الى المقلع معه بعد الغداء. والله وحده يعلم السبب. أرجوك أن تقنعي نيكولا أن يتصرف حسناً مع عمه الكبير. »

اعتنت لورا بنيكولا طيلة فترة ما قبل الظهر. وذكرته مراراً بتلك الليلة عندما جاء عمه دومنيك ليتفقده وهو نائم، ثم قصّ عليه حكاية، كما أكدّت له أن عمه سيقص عليه حكاية اخرى لو انه يعد بأن يتصرف تصرفاً حسناً بعد ظهر اليوم في المقلع.

لكن الزيارة الى المقلع كانت فاشلة، ربما لأن كليوباترا قررت مرافقته في آخر لحظة.

عاد الجميع الى البيت بعد ساعتين تقريباً. كل واحد مقطب الوجه من جهة. وكان من الصعب معرفة مَنْ السبب في فشل هذه الزيارة، الولد أم أمه.

وضعت لورا الصبي الباكي في سريره بعدما أخبرته قصة صغيرة، لأن عمه لم يقص عليه شيئاً. وبعد أن غرق في نومه، انسحبت لورا بهدوء من المنزل لتتمتع ببقية فترة ما بعد الظهر في وحدتها.

فوجئت برؤية سيارة دومنيك في الممر، كانت تعتقد أنه عاد الى عمله في المقلع، لكنه خرج فجأة من قفص الكلاب ووقف أمامها والكلاب تتبعه.

فقالت مندهشة:

« آه، ألست اذن في المقلع! »

« كلا. أنا في حاجة لقسط من الراحة والهواء المنعش. اذا كنت تنوين التنزه يمكننا أن نقوم بذلك سوية. »

لم يكن يبدو على دومنيك ارتياح وحماس. فلا بد أنه، مثلها، كان يفضل قليلاً من الوحدة. ولسوء الحظ، أنها التقيا! قررت أن تفترق عنه بعد

خروجهما من حديقة المنزل وجواره. وبعدما خرج دومنيك من الباب الحديدي، اتجه الى اليسار، فأسرعت الفتاة بالقول:

« أنا ذاهبة الى اليمين. الى اللقاء. »

قال بوقاحة:

« هكذا اذن تتخلصين مني. »

« اعتقدت أنك ترغب البقاء وحيداً. »

« هذا خطأ، يا آنسة سميث. سأبقى معك! »

ران صمت بعد هذا الحوار. ودومنيك يمشي في سرعة من دون مجاراة لورا. فقررت أن تسأله اذ رأته ساهياً:

« أنا آسفة لفشل زيارة المقلع. ألم يتصرّف نيكولا جيداً؟ »

« نيكولا؟ آه الصبي كان ممتازاً، لكنه غضب عندما رفضت والدته أن يتمرّغ كما يريد. »

« يجب أن تصطحبه معك مرّة أخرى. »

« كلا. لا أعتقد أن ذلك ضروري. ان سكان المنطقة وخاصة العاملين في المقلع لم ينسوا العراك القديم. وكبار العمال هم من أنصار والدي ومن رأيه. »

« هل تعني أنهم يتحاشون رؤية زوجة تروي وابنه. »

« تقريباً. بالنسبة اليهم كليوباترا غريبة. والقصة لم تكن جميلة، ولأهالي المنطقة ذاكرة غريبة. »

« لا، لم تكن القصة جميلة. لكن لا شك أنك أحببت هذه المرأة كثيراً كي تتقدم للزواج منها مكان اخيك. هل أنا اتدخل الآن في شؤونك؟ »

« كلا. أنت لا تتدخلين في شؤوني، يا لورا. لكني كنت ما أزال شاباً حينذاك. »

نظر اليها بعينيه الزرقاوين في حدة وعرفت أن الماضي لم يعد وارداً الآن. فقالت:

« لم يمض على هذه الحادثة الاّ سبع سنوات. »

« نعم، سبع سنوات، لكن الانسان يتغير أيضاً. صحيح أني احببتها لكن الماضي قد ولّى. »

توقفا على حافة الطريق وجهاً لوجه، فنظرت لورا اليه باشفاق، فقال :

« اسمعيني، أيتها الفتاة العاطفية. المرأة المعنية تزوجت. وزواجها ناجح. وأنا سعيد من أجلها. »

صرخت لورا بعفوية جعلته يبتسم، اذ قالت :

« آه، أنا أيضاً سعيدة من أجلها! واسمح لي أن أقول لك انني لست شديدة العاطفة كما تظن. »

« هل سبق أن وقعت في الغرام؟ »

اجابت ببساطة :

« كلا. صحيح أنني تعرفت الى قليل من الشبان في حياتي، ولست أملك سحر وجاذبية كليوباترا. »

ندمت لذكر اسم ابنة عمتها لان وجه دومنيك تجهم في الحال. وأطلق صفيره للكلاب، وعادا معاً الى المنزل بصمت.

كان العشاء في وقت متأخر في ذلك المساء، بسبب تأخر دومنيك في العودة من عمله لأنه أنهى بعض الاعمال. وكانت كليوباترا تسأم حتى الموت ومزاجها معكر.

نظرت كليوباترا الى الساعة وصرخت :

« لماذا تأخر الرجلان؟ »

كانت كليوباترا ترتدي بدلة شديدة الاناقة كأنها تنوي الخروج بعد العشاء برفقة بيريغرين. وهذا التأخر ربما أدى الى تعطيل مشاريعها. وبدت فارغة الصبر ومنزعجة وأعلنت فجأة :

« شاهدت اليوم رئيس أعمال دومنيك. يا له من انسان كريه! »

« مثل جميع سكان منطقة كورنويل. لا شك أنه يتصرف بقلة ثقة خاصة أمام الغرباء. »

احتجت كليوباترا قائلة :

« أنا لست غريبة. إني انتمي الى آل تريفاين! »

« هذا النوع من الناس لا يعترفون الا بصلة الدم. والفتاة التي كانت تنوي الزواج من ترويلوس كانت ابنة البلد. »

هزت كليوباترا كتفيها باستغراب واحتقار وقالت :

« الظاهر أنك تعرفين عقلية هذا البلد تمام المعرفة! هل أخبرك دومنيك بكل هذه القصص عندما جلبته قسراً في نزهة معك؟ »

« لم أجلبه قسراً. كنت أفضل الخروج وحدي، إذا أردت معرفة الحقيقة. »

صفق باب المدخل وسمعت أصوات الرجلين في البهو. فنسيت كليوباترا في الحال ابنة خالها وانتفضت واقفة.

دخل بيريغرين الى الغرفة مطالباً بصوت عال بكأس شراب. ودومنيك الأكثر هدوءاً دخل وراءه. خلع سترته ووضعها على مسند الكرسي في برود. فاقترحت عليه كليوباترا أن تحضر له كأساً. فقبل عرضها من دون اظهار أي حماسة للأمر.

وأكد وهو يرخي ربطة عنقه :

« ليس الأمر مزعجاً أن يستقبل الانسان في منزله كضيف. »

وفكرت لورا أن ذلك طريقة مسلية يذكر فيها سكان بانسون أنه سيد المكان. لكن كليوباترا لا تستوعب مثل هذه التفاهات. كانت تقوم بتحضير كأس للرجل بطريقة ساحرة، وكلما تحركت لا تنسى أن تطير تنورتها من أجل المزيد من الاثارة.

قال بيريغرين وهو يغلفها بنظرة اعجاب :

« كم تبدين مرتاحة، يا أرملة أخي العزيزة! »

« يحق لي أن أشعر بالارتياح هنا، أليس كذلك؟ »

رمقت دومنيك بنظرة ساخرة وقالت :

« هل أبالغ، يا دومنيك؟ هل أتصرف أكثر من اللزوم، كما لو كنت سيدة المنزل؟ »

أجابها بيريغرين بابتسامة ساخرة :

« في أي حال، هذه ليست الطريقة المفضلة للحصول على حصانك المفضل! »

ولحسن الحظ وصلت ميريام تعلن بأن العشاء أصبح جاهزاً بانتظارهم في غرفة الطعام. وبينما جلسوا الى مائدة الطعام انقطع التيار الكهربائي فقال دومنيك حانقاً :

« أية مصيبة! »
قالت ميريام بصوت تأنيب :
« لا أحد يعير انتباهاً لمصاريف الكهرباء هنا. الاضواء تبقى مشتعلة في الغرف الفارغة وعليّ أن اطفئها بنفسي. »
أعلن دومنيك أنه على غير استعداد للخروج في هذه الساعة من الليل ليشغل المحرك الكهربائي الاضافي. ففرحت لورا بالامر. وأضيء المكان بالشموع والقناديل التي تعمل على الزيت وغرق البيت في حالة حلم فبدت الوجوه ضبابية وشاحبة. وضع آموس شمعة وسط الطاولة وهو يشتم مؤسسة الكهرباء. ولّما خرج من الغرفة أطلقت لورا العنان لمخيلتها وقالت :
« أحب هذا الجوّ الحميم! »
ابتسم دومنيك لكن بيريغرين احتج قائلاً :
« هذا جوّ مضجر! »
أما دومنيك فكان يبدو أنه يشاطر لورا رأيه.
بدأت كليوباترا تتذمر من أن الطعام أصبح بارداً في الوقت الذي ضاع لإشعال القناديل والشموع. لكن لورا اندمجت في تأمل الشعلة وهي تتذكر مزرعة قديمة حيث أمضت من زمان بعيد عطلة الصيف مع العمة فلورا.
فجأة صدرت ملاحظة عن دومنيك فأفاقت لورا من أحلامها.
قال دومنيك باشمئزاز :
« يدك شاردة! »
كالعادة كانت كليوباترا جالسة على يمين دومنيك. فحاولت صفعه، لكنه أمسك بمعصمها بقوة ولبضع لحظات راحا يتفرسان الواحد في الآخر، ونسيا تماماً وجود لورا وبيريغرين. بريق رغبة جائعة ظهرت في عيني دومنيك فاسترجع وعيه وقال بغضب :
« راقبي تصرفاتك. أنا لست بيري! »
لاحظت لورا أن جسمها بدأ يرتجف، بينما اكتفت ابنة عمتها بالقهقهة عالياً عندما أفلت يده عنها. أما بيريغرين فكان يتابع ما يجري من دون كلمة. بينما لاحظت لورا أن بيريغرين بالرغم من تعبيره اللامبالي

والساحر، كان غيوراً جداً جداً.
اقترب الكلب روبلي من كرسي كليوباترا، فأعطته عظم الدجاج فقط من أجل اغاظة دومنيك. فصرخ بها غاضباً :
« هل تجهلين أن عظم الدجاج باستطاعته أن ينخر أمعاء الكلاب! »
نهضت كليوباترا وتثاءبت وصرخت :
« هيا، يا بيري تعال معي لنتسلى خارجاً! »
قال دومنيك :
« اقفلت الحانات في مثل هذا الوقت. »
« اذن لنقم بنزهة في السيارة. هل توافق على ذلك، يا بيري؟ سيارتك لؤلؤة. لو رآها ترويلوس لاحبها كثيراً. »
هل تذكرت تروي عمدا لتذكر سلفيها بأنها تنتمي هي أيضاً الى آل تريفاين. تهيأ للورا في بادىء الامر أن بيريغرين سيرفض لها طلبها. لكنه انتفض من كرسيه بعنف وخرج من قاعة الاستقبال ووراءه كليوباترا.
لم تجرؤ لورا على القيام بأي حركة. اخفضت عينيها ووضعت يديها على ركبتيها، وانتظرت كتلميذة مدرسة خائفة السماح لها بالنهوض. ظلّ نظر دومنيك لفترة محدقاً في الباب. كان منزعجاً وبدا أنه تذكر فجأة وجود لورا معه.
ولما شاهد في الفتاة القلق الواضح، استرخت أسارير وجهه وقال :
« يا لورا المسكينة، الحقيقة بشعة مقارنة بأحلامك والاساطير التي تحبينها. »
لم تردّ عليه لانها لاحظت في صوته نبرة ساخرة، تبدو لطيفة ظاهرياً.
أضاف دومنيك واقفاً :
« حسناً، النهار كان قاسياً. وانت يا ميريام، تأكدي من أن آموس يفكر في اشعال القناديل في غرف الضيوف. تصبحين على خير، يا لورا. »

٧- أنت حصاني الى الأبد

اليوم التالي، كان يوم الجمعة العظيمة. ومثل كل سنة يغلق المقلع أبوابه لمدة عشرة أيام. وتساءلت لورا كيف ستتم هذه العطلة في صحبة آل تريفاين. كان عليها أن تنسى حادثة الأمس، لكن ويا للأسف، بالرغم من كونها غريبة، كانت تتأثر جدياً بمشاكل وقضايا بانسبون. كما أنها كانت تأمل في المحافظة على مسافة ما في العلاقات مع عائلة ابنة عمتها الرهيبة، لو لم تشعر تجاه دومنيك بعاطفة عميقة حقيقية!

همست لورا وهي تساعد ميريام في ترتيب الغسيل في غرفة صغيرة تقع قرب المطبخ:

« لم أعد أعرف شيئاً... »

قالت الخادمة بلطف:

« ماذا هناك؟ »

« لا شيء! »

تقلصت لورا إذ كانت على وشك أن تفضح نفسها، لكن ميريام استقبلت هذا الانقباض بتسامح متفهم وقالت:

« عندما يكون المرء في أوج الشباب اليافع يخلق لنفسه المشاكل، لكن الأمور تنجلي في آخر المطاف، صدقيني... عشر مناشف... دزينة وجوه للمخدات... آه نعم، يا ابنتي، هناك دائماً حلّ. هل تنوي ابنة عمتك البقاء هنا طويلاً؟ »

أجابت لورا وهي تطوي شرشفاً:

« ستبقى هنا حتى يصار إلى العثور على حلّ لمشكلة نيكولا. أما بالنسبة اليّ، فاعتقد انه يجب أن أرحل عمّا قريب. لم آتِ إلى هنا الا تلبية لطلب كليوباترا وتقديم خدمة بسيطة لها. »

« لست في حاجة إلى الرحيل. »

حملت لهجة العتاب من ميريام ما يعني انه لم يكن يجب على لورا أن تفكر مثل هذا التفكير.

اكتفت لورا بالإبتسام هي التي اعتادت على غرائب هذه الخادمة. وفي تلك اللحظة، أطل رأس بيريغرين من الباب المفتوح وأطلق مزحة كريهة. فوصل بالصدفة دومنيك وراءه الذي لم يكن في مزاج يقبل المزاح. فقال وهو يبتعد:

« حافظ على هذا النوع من الكلام لأشخاص من طينتك. »

أطلق بيريغرين صفيراً ساخراً وقال موجهاً كلامه إلى ميريام:

« ما الذي أصاب أخي، يا ترى؟ كان ذبابة قرصته؟ هل يميل إلى لورا الناعمة بالرغم من جاذبية وسحر ابنة عمتها؟ إن شعوره بالحماية الأبوية شديد الحساسية، وأنا أقول لها هذا الكلام من زمان. »

أكدت الخادمة قائلة:

« دومنيك ورث وحده محبة وحنان وعطف والدته. »

صرخ بها بيريغرين:

« ماذا تقولين؟ بدأت تنحازين إلى صف العدو؟ »

« هل دومنيك عدو، يا بيريغرين ؟ »

هزّ كتفيه وقال :

« لا، لا . . . انه يثير أعصابي، فقط ليس غير. »

كان يشبه ولداً صغيراً مضطراً أن يفصح عن غلطه . لكنه ما ان لاحظ انزعاج لورا من هذا الحديث حتى استعاد رباطة جأشه وشدّ شعرها وقال :

« يا ميريام، باتت لورا في صفك . ويبدو لي أيضاً أنها تكنّ لسيد المكان عاطفة سرية . ما رأيك ؟ انظري ! انها تحمرّ خجلاً ! »

لم تحاول لورا الدفاع عن نفسها من شدّة توترها . فرمقها بنظرة حادة قبل أن يخرج إلى الحديقة حيث كانت كليوباترا بانتظاره . وأعلن من دون تهديد بغية احداث صدمة عندها :

« أتساءل ما إذا كان السيد الكبير قد وقع في الغرام . »

أجابت كليوباترا على الوتر نفسه :

« ولم لا ؟ أنا مناسبة له . ونحن نؤلف ثنائياً جميلاً، ما رأيك ؟ »

جلس بيريغرين قربها على مقعد من حجر وكان الطقس جميلاً والشمس ساطعة . ثم قال :

« لا أعنيك أنت بل ابنة خالك ! »

غضبت كليوباترا ففرح بيريغرين وتابع بقول :

«إنّ تمثيلك البارحة كان ناجحاً، لكن لا تتصوري أنك ستجذبين دومنيك إليك بهذه الطريقة . »

« أنت انسان غيور ! »

وظهرت ابتسامته الساخرة وهو يضيف :

« تماماً . لقد حققت هدفك الأول . أما بالنسبة إلى الهدف الثاني . . . فهل لديك نوايا تجاه سيد العائلة ؟ »

« نعم . أنا تعبت من العيش حياة غير مستقرة وأريد الاستقرار، من أجلي ومن أجل ابني . في أي حال، لست المستوى المطلوب لتربية الأولاد، مثل تزويلوس . . . وأنت كذلك، يا بيريغرين . لا شك أن هذا السبب الذي . . . »

« منعني من الزواج منك ؟ أنت على حق وأنا معجب بصراحتك . مع

ذلك، ليست فكرة الولد وحدها هي التي منعتني من ذلك . فأنا مصرّ أن أحافظ على حريتي . »

« لا تخترع قصصاً الآن . لو لم يكن هناك نيكولا، لتزوجتني من دون تردد . »

« ربما . لكنك لا تعين حتى الآن أن هناك من ينافسك ! »

«تعني لورا ؟ لا تتفوّه بالحماقات يا بيريغرين ! ما أراه هو أنها تركت نفسها تنجذب إلى بطل أحلام سن المراهقة . وهذا شيء عابر . »

قهقه بيريغرين ساخراً وقال :

« كلا . لم تفهمي بعد . حسب رأي ميريام، دومنيك يبادلها الشعور نفسه . »

« ميريام امرأة مجنونة ! »

« ليس تماماً . لا شك أنك لاحظت بأي تيقظ يرعى أخي شباب وبراءة نعجته البيضاء . إنه لا يسمح لها أن ترتاد النوادي الليلية و . . . »

« لكن هذا لا يدل على أن دومنيك يكنّ لها عواطف عميقة . بل إنه يتمتع بحس المسؤولية ويعتقد أن من واجبه السهر على لورا كأنها فتاة صغيرة . وحتى لو كان يشعر تجاهها بعواطف قوية، فان لورا فتاة ساذجة وليس باستطاعتها الافادة من ذلك . »

سألها بيريغرين بفضول يميل إلى الاستياء :

« بينما أنت تنوين استعمال كل ما لديك من مواهب للتوصل إلى الزواج منه، بالرغم من العلاقات القائمة حالياً بيننا ؟ »

« لا تقلل من قيمة حظوظي . إنني أملك الورقة الرابحة، ذلك أن دومنيك يريد نيكولا . »

« ماذا تقولين ؟ »

« لقد كشف عن نيته للورا بانه يأمل أن يشرف بنفسه على تربية نيكولا هنا في بانسيون، وأن لديه مشاريع بهذا الصدد . لذلك يحق لي أن افكر بان دومنيك قد أدخلني في هذه المشاريع . لقد حطم تزويلوس قلب دومنيك الحزين . والآن هو في حاجة إلى إرث . لكن حتى ولو لم يكن مغرماً بي فيمكنني على الأقل أن أجعله يرغبني ويتزوج مني . وأنت لن تخسر شيئاً .

سأبقى هنا وسنعيش تحت سقف واحد، ولن يتغير شيء بيننا. »

غابت عينا بيريغرين للحظة قصيرة عن اللمعان بسخريته العادية، فانتابه اشمئزاز وقرف لم يسبق أن أحس بهما من قبل. وقال من دون التنازل عن هدوئه :

« أنت تقرفينني، يا كليوباترا! »

لكن كليوباترا استطردت من دون اضطراب :

« أنا انسانة لا اخلاقية، وأصبحت هكذا بسبب ترويلوس. لو لم أتقاسم وجهة نظره لما تزوجني. أرجوك الاّ تلقنني درساً الآن، كما فعلت لورا! في كل حال بدأت أفهم الآن أن شغف لورا بدومنيك لا أمل له. »

« لا تطلقي أحكاماً بسرعة. انظري! »

في هذه الأثناء كان دومنيك ولورا يجتازان معاً الحديقة. كانا يبدوان كأنهما يتقاسمان مودة وألفة صداقة قديمة. . . مثل شخصين على وشك البوح لبعضهما بحبهما المتبادل. ومن حيث هما لا يستطيعان رؤية كليوباترا وبيريغرين. لا شك أن مزاج دومنيك السيء قد تبدّد لأنه أحاط خصر لورا بذراعه وهي رفعت نحوه وجهها المبتسم. وفجأة احتضنها بذراعيه كي تتجنب تجاوز جدار صغير وضمها إليه وقال :

« كم أنت خفيفة! »

ثم وضعها على أرض الحديقة، وأزاح في حنان عن وجهها خصلة من شعرها فقالت كليوباترا ساخرة :

« يا لهذا الغزل اللطيف. اعتقد أن بامكان لورا أن تجتاز العقبات الصغيرة، أليس كذلك؟ »

سمعها دومنيك بعدما التفت نحوها وقال وهو يدعو لورا للجلوس قربه على مقعد مقابل كليوباترا وبيريغرين :

« لا شك في ذلك. »

ثم راح دومنيك يتأمل بامعان وجه أرملة اخيه ويقول :

« لم أكن أعتقد أن الشمس حارة في مثل هذا الوقت من السنة، ويجب عليك يا كليوباترا أن تحمي نفسك منها. »

ابتسمت كليوباترا له وقالت في ثقة :

« لست في حاجة إلى ذلك. لقد سبق أن تحمّلت شمساً حارة أكثر بكثير من الآن. ان بشرتي تسمرّ بسرعة على أفضل وجه. لكن هذا لا يعني أن لورا هكذا، فهي تحمرّ لأي شيء وتقشر جلدتها بسرعة. »

هكذا قال دومنيك بجدية، ثم قهقه :

« البشرة الفاتحة والرقيقة ليست لها ردّات الفعل نفسها. وللحقيقة، يا كليوباترا، لم أكن انتظر منك ردّة الفعل هذه! »

« أي ردّة فعل؟ »

« بعض الغيرة تجعلك تظهرين أكثر انسانية. لكنه لا سبب لك كي تغاري. فليس هناك أي دافع لذلك. »

كانت كلماته غامضة. لكن كليوباترا قررت أن تعتبرها إطراء لها وعبست بوجه لورا في إيماءة اعتذار. وبعد ذلك وصلت ميريام لتعلن بأن الغداء سيصبح جاهزاً عما قريب وأنها تقترح ارسال نيكولا لتمضية بعض اللحظات معهم. فصرخت لورا مليئة بالندم :

« آه، لقد نسيته كلياً! كليوباترا، كان عليك أن تذكريني بواجباتي! »

قالت مازحة وبلطف :

« أنت هي المربية! لكن عليّ أن أصرّح لك بأنني نسيته أنا أيضاً، يا لهذا الولد المسكين! »

وسألت ميريام بينما ذهب دومنيك ليجلب نيكولا :

« هل سيذهب أحد منكم إلى ميريبورث غداً؟ »

استفهم بيريغرين قائلاً :

« ولِمَ؟ ألم تقومي بالتموين اللازم لهذه العطلة؟ »

« بلى، لدي كل ما يلزم وسأحضر لكم المأكولات الشهية. لكن ما زلت بحاجة إلى البيض. »

« البيض! ليس أمامك الا الحصول عليه من خمّ الدجاج! »

« أقصد بيض الفصح. ففي الوقت الحاضر، عندنا ولد في المنزل. »

قالت كليوباترا :

« لا سبب للقلق من أجل نيكولا. لم يسبق أن استلم أي هدية في عيد الفصح، مهما كان نوعها. »

قالت لورا متحمسة مع ميريام :

«يا للأسف، يا كليوباترا. هل تتذكرين كم كنا نفرح عندما نكتشف البيض والفراخ الصغيرة المصنوعة من الشوكولا، والتي كانت تقدمها لنا العمة فلورا ؟ هل هناك حافلة نهار السبت تذهب الى ميريتبورث، يا ميريام ؟ »

اقترح بيريغرين عليها قائلاً :

« سآخذك في سيارتي. »

قالت كليوباترا :

« لا تتكل عليّ في مرافقتك. لست أنوي اضاعة الوقت في شراء بيض العيد. سأستغل فرصة غيابك لقضاء بعض الوقت برفقة دومنيك. »

« اتفقنا، يا حلوتي. ستتيح لك المجال لتجربي حظك قرب أخي الكبير. اما من جهتنا نحن، لورا وأنا، فلم تسنح لنا الفرصة للخروج معاً، واني أنوي أن أحقق ذلك. »

في صباح اليوم التالي، ذهبت لورا مع بيريغرين، فرحة مثل ولد سيحصل على جائزة. وقد سمح لها الطقس الجميل الدافىء أن ترتدي فستاناً جميلاً.

كانت كليوباترا قد رسمت خططاً لهذا النهار لكن الأمور لم تجرِ تماماً كما كانت تتوقع. وبينما كانت تودع باشارات حماسية من يدها، لورا وبيريغرين، كان دومنيك يراقب من دون حركة خروج أخيه الصاخب. وكعادته، أقلع بسيارته في ضجة رهيبة وسرعة غير عادية.

فسأل دومنيك :

« فكرة من مشاريع التسوّق هذه ؟ كان يجب على بيريغرين أن يساعدني في إصلاح السياج. »

« لا أعرف شيئاً عن هذه الأمور. . . ربما هذه فكرة لورا، لأنها شعرت برغبة في الخروج. هيا بنا نأخذ كأساً، يا دومنيك. »

« أنا لا أشرب عادة في الصباح، لكن هذا لا يمنعني من أن أسكب لك كأساً. »

كان اقتراحه خالياً من الحماس. لكن كليوباترا لم تفقد شجاعتها

وأخذته بذراعها ورافقته إلى المنزل.

« لا سبب، يا دومنيك، لأن تفسد على لورا هذا العيد الكبير. دعها تمرح وتلهو. فحتى الآن، تصرفتُ بانانية، وخرجت من دونها. . . اني الاحظ أنّ لورا معجبة ببيريغرين كثيراً. . . »

قطّب دومنيك حاجبيه وقال :

« صحيح. كنت أعتقد أن تحرشاته بها لم تتكلل بالنجاح. »

« آه، لكن لورا تعرف أن تخفي عواطفها ! إنّ معظم الشباب في سنها يخفون انفعالاتهم. . . وذلك لأنهم يخجلون، هل فهمت ؟ بيريغرين رجل جذاب جداً. »

ارتاحت في أحد المقاعد في قاعة الاستقبال، وتوجّه دومنيك إلى زاوية القاعة حيث سكب كأساً لكليوباترا وقال :

« نعم، أخي يتمتع بجاذبية وسحر كبيرين. »

« وما همك أنت ؟ انك غير مسؤول عن لورا. »

« وأنت ؟ أنت الوحيدة التي بقيت لها من عائلتها. »

رفعت كليوباترا كأسها وهي تحاول جاهدة أن تبقى مبتهجة. جلس دومنيك على طرف النافذة وسمع كليوباترا تقول :

« اسكب لنفسك كأساً، يا دومنيك ! لا احبّ ان اشرب وحدي. لورا ؟ نعم، أشعر أنني مسؤولة عنها بطريقة ما، لكن ماذا تريدني أن أفعل ؟ ماتت العمة فلورا. ويجب على لورا أن تعيش حياتها. في كل حال، لست قادرة على أن أقدم لها مسكناً، إذا كان هذا ما فكرت فيه. فليس عندي مسكن أنا بالذات. »

« لست من الأشخاص الذين يستقرون في مكان واحد، يا كليوباترا. »

وعاد عن قراره ونهض ليسكب لنفسه كأساً ثم سألها :

« ألم تكوني سعيدة من الحياة البدوية التي عشتها في استراليا ؟ »

تأمّلت كليوباترا لحظة ظهر دومنيك في صمت. فأي جواب عليها اعطاؤه ؟ بدأت تقول في حذر :

« إنه بلد يستحسنه الشاب. »

« هل ترغبين في العودة إلى هناك ؟ »

« إلى استراليا ؟ »

أرخت جفنيها وراحت تراقبه عن كثب، هل يقول ما يرد في رأسه من أفكار، من أجل الحديث، فقط ليس غير؟ غير أنها تعرف أن دومنيك لم يسبق له أن تكلّم من دون أن يعي ما يقوله.

« كنت أحب أن أعيش في استراليا لو كان الوضع مختلفاً. لكن ترويلوس مات ونيكولا بحاجة إلى استقرار وأنا كذلك. »

كان دومنيك يدرسها بإمعان. عيناه الزرقاوان تذكرانها ويا للأسف بأنه لا يشبه تماماً بقية آل تريفاين. وبتلميحها عن نيكولا، أعطته فرصة عرض مشاريعه التي تحدّثت عنها لورا. لكنه لم يفهم قصدها واكتفى بالاستفهام عن وقت عودة لورا.

فأجابته كليوباترا في غيظ :

« لماذا تريدني أن أعرف. لست بحاجة لأن تتصرّف مثل أب عطوف. لا شك أن لورا ما تزال فتاة ساذجة، لكنها ليست حمقاء حتى ولو كانت تميل قليلاً إلى بيريغرين. »

أجابها دومنيك في برود :

« أنت من يضخم الأمور. سألتك فقط متى ينويان العودة. انني انتظر بيريغرين كي يساعدني في اصلاح السياج، هل فهمت ؟ هل تريدين كأساً أخرى ؟ »

هزّت كليوباترا رأسها موافقة. كانت مستاءة لأنها أفصحت عن نفسها، وفي الوقت نفسه ملّت من تحفظ دومنيك بدلاً من الإفصاح عن مشاكله. ثم قالت ناوية أن تجرح شعوره :

« الذي أفهمه هو أن لورا تشعر بانزعاج كلّما كانت معك. »

أجابها دومنيك بهدوء :

« أنا أخيف الصغار والغرباء، أعرف ذلك. »

أكّدت له كليوباترا اعتقادها أنها بدأت تسيطر على الوضع من جديد :

« لكنك لا تخيفني أنا. باستطاعتي أن أقاوم أيّ واحد من آل تريفاين ! »

قال في نظرة ساخرة :

« وكذلك ابنة خالك، لكن على طريقتها الخاصة. »

شعرت كليوباترا أن معركتها خاسرة وقالت :

« طبعاً إنّ لورا تدافع عن نفسها دائماً حتى ولو كانت مسمّرة مكانها تحت تأثير الصدمة. معك، تتصرّف في حذر أكثر من بيريغرين، وهذا أمر طبيعي، أليس كذلك ؟ إنّ بيريغرين شاب لا يبلغ من العمر سوى ٢٦ سنة، وهو المفضل. »

لا شك أن ما قالته أصاب الهدف المطلوب. إذا كان دومنيك يشعر تجاه لورا بعواطف عميقة، فلا شك بأنه سيحتار من الفرق الشاسع بين عمره وعمر لورا. قالت كليوباترا :

« هل عليّ أن أجلب نيكولا الآن ؟ »

لكن هذه المبادرة لم تكن سعيدة لأن الولد بدا كئيباً في غياب النجمين المحببين إليه. وظلّ لا يبالي بمحاولات عمه الفاشلة لارضائه وتسليته.

أخيراً عدل دومنيك عن المواصلة في ارضاء رغبات ابن اخيه وانصرف الى العمل في الحديقة برفقة آموس. ولّما حان وقت الغداء كانت كليوباترا وحدها مع دومنيك. حتى هذا اللقاء أمام مائدة الطعام كان مملاً واعتذر دومنيك عن مزايا الضيافة لديه وبدأت كليوباترا تندم على عدم ذهابها إلى ميرينبورث مع لورا وبيريغرين.

عادا في أواخر الظهيرة. وما ان دخلت سيارة بيريغرين الباب الرئيسي حتى بدأ باطلاق زماميره الصاخبة، فأسرعت كليوباترا للقائهما. ووصل دومنيك أيضاً رافعاً أكمام قميصه. كانت لورا جالسة في المقعد الخلفي وسقف السيارة كان مفتوحاً. شعرها كان يطير وراءها أما بيريغرين، فكان يعتمر قبعة صغيرة غريبة. وكانا يغنيان بأعلى صوتيهما.

قالت كليوباترا في استغراب :

« لا شك أن بيريغرين قد سقى الفتاة ما لذّ وطاب من الشراب ! »

كان دومنيك ينظر بصمت إلى أخيه الذي كان يخرج من صندوق السيارة علباً كثيرة من جميع الاحجام. ثم قال بفرح :

« لقد اشترينا عدداً من البيض يكفي لاعالة مئات الأولاد. »

ظلّت لورا مكانها غير مستعدة للهبوط. فقال دومنيك مازحاً وفي لطف :

« لينزل الجميع ! »
شرح له بيريغرين قائلاً :
« نعجتك البيضاء مترعة. . . مترعة من الفرح. »
فاعلنت بحماس وفرح :
« وجدت أشياء رائعة لنيكولا ! »
كانت عيناها تلمعان ولم يسبق أن رآها دومنيك براقة من الفرح. فشعر بانزعاج بسيط عندما حملها بيريغرين بين ذراعيه ووضعها أرضاً. تركت لحظة يديها على كتفي الرجل الشاب وقالت :
« شكراً، يا بيريغرين، على هذا النهار الجميل. »
« وأنا لم أصدق أنه بإمكاني أن ألعب وألهو مثل الأولاد. »
قال له دومنيك بجفاف وهو يحمل بعض العلب الى المنزل :
« إني مسرور جداً لأن نزهتكما كانت ناجحة. »
وخلال العشاء لم تلاحظ لورا أنها تزعج دومنيك بينما كانت تتحدث عمّا حدث لها خلال النهار. فهي ما زالت متأثرة بسحر الرحلة وللمرّة الأولى لم يحاول بيريغرين مناكدتها كما هي عادته. فقد تصرّف نحوها بلطف غريب حتى أنها لم تعد قادرة أن تفرقه عن أخيه، مثلما حدث لها ذلك المساء عندما تركته يعانقها. لكن خيبة أملها كانت في أوجها عندما التجأ دومنيك الى مكتبه من دون كلمة. وبدا أن كليوباترا وبيريغرين يجدّان قضاء بقية السهرة معاً. وفي الحال شعرت لورا أنّ وجودها سيزعجهما فقررت الذهاب إلى فراشها.
وقبل الصعود إلى غرفتها مرّت بالمكتب لتتمنى لدومنيك ليلة سعيدة وتقول له أنها قامت بشراء بيض العيد كما يجب.
قالت له :
« تصورّت أنك لن تفكر بشراء بيض العيد. لا شك أنك لم تحلم من زمان بأن تتلقى مثل هذه الهدايا الصغيرة. »
أجابها بعنف :
« لا سبب لان تذكريني بأنني رجل مسن كي أتذكر طفولتي ! »
انتفضت لورا وقالت متلعثمة :

« لم أكن أعني ذلك. »
نهض دومنيك واقفاً. يبدو أن مشكلة ما تشغل باله، فقال :
« لو كنت أعرف هدف خروجك مع بيريغرين اليوم، لكنت رافقتكما. ادخلي اذن، يا لورا. »
« ألم تعلمك كليوباترا بالأمر ؟ فكر بيريغرين أن نذهب كلنا معاً. لكن كليوباترا رفضت ذلك. هل ترغب في معرفة ما هي هديتك ؟ »
قال في مرارة :
« لا أعتقد أني سأنال محبة ابن اخي بواسطة بيض الشوكولا، وفراخ الدجاج المصنوعة من البلاستيك ! »
« ليست الفراخ مصنوعة من بلاستيك ! الدجاجة جميلة وناعمة، كما اشتريت أرنباً من جلد الفرو. . . لكنك إنسان كريه ! »
« هل جرحت شعورك، يا لورا الصغيرة. »
جلس على مكتبه وأفرغ محتوى غليونه في المنفضة وأضاف قائلاً :
« لم أكن أقصد أن أؤذيك. . . ولا أن ازعج نهارك. »
لكن نهارها بات فاشلاً وشعرت لورا أنّ دومنيك ينتابه القلق والهم. لقد قضى قسماً كبيراً من النهار برفقة كليوباترا. ماذا جرى بينهما ؟ لا شك أنه أعلمها بمشاريعه، وكما أن كليوباترا تعرفه تماماً، راحت تسل وتناكده.
فقالت له بتهذيب :
« لم تزعج نهاري. »
« بلى ! لقد تصرفت في عصبية وفراغ صبر لأسباب لا يمكنك فهمها. ادخلي. »
« أنا أفهم تماماً. »
ظلت جامدة على عتبة الباب لم تحاول التقدم خطوة.
« صحيح ؟ هذا يدهشني. »
« تصبح على خير، يا دومنيك. ليلة سعيدة ! »
ثم اختفت بسرعة هائلة.
خابت آمال الجميع بالنسبة إلى يوم الفصح الذي كان ممطراً. واجتاح المزاج المعكر جميع سكان بانسيون الذي اضطروا للبقاء داخل المنزل طيلة

النهار. والعيد الصغير الذي تمنته لورا لنيكولا كاد أن يكون مأساة حقيقية فانتصر بيريغرين على دومنيك في استمالة عواطف نيكولا وعلم بمزاجه المرح وألعابه وطريقة تفخيم هداياه. لكن كل الجهود التي قام بها دومنيك لجذب انتباه الولد باءت بالفشل. ولّما حان وقت الغداء كان قد وصل نيكولا إلى مرحلة كبيرة من الاثارة. وبصورة استثنائية تمّ التوصل إلى أن يتناول الصبي طعام الغداء برفقة العائلة. لكن هذه البادرة انتهت بالبكاء وشعر الجميع بارتياح عام عندما اصطحبته لورا إلى غرفته لينام في فترة القيلولة.

اقترحت لورا على دومنيك قائلة :

« يجب عليك أن تذهب إلى غرفته وتقص عليه قصة كما فعلت من قبل. »

أجابها بلهجة باردة :

« لا أنوي أن أستعطي محبة نيكولا. لقد اهتممنا به كثيراً اليوم وهذا يكفي. »

ثم أدار لها ظهره وذهب إلى الحديقة للقيام بنزهة مع الكلاب برغم تساقط المطر.

جلست كليوباترا على المقعد في قاعة الاستقبال قبالة بيريغرين وشعرت لورا أنّ وجودها غير مقبول، فتوجهت إلى المطبخ لتساعد ميريام في غسل الصحون وقالت لها :

« عيدنا لم يكن ناجحاً. أتمنى لو يختفي بيريغرين من هنا لبعض الوقت. انه لا يشعر بدرهم عاطفة تجاه نيكولا، بالنسبة إلى ما يشعر به دومنيك تجاه الصبي. »

شرحت لها ميريام بوضوح قائلة :

« عند آل تريفاين، الذين لا يحبون ينتصرون دائماً على الذين يحبون. ربما تتوصلين إلى إحباط هذا القدر. »

« أنا، لا أفهم، يا ميريام. »

« من دون شك، يا ابنتي الصغيرة. في كل حال، عديني ألاّ تنسي الحصان القارن. »

« الحصان القارن ؟ »

وخلال لحظة قصيرة كادت لورا تعتقد أنّ عليها أن تتحمّل تفاهات ميريام العادية. لكنها عندما فكرت بالاسطورة فوجئت باحرار وجهها وقالت لاخفاء ارتباكها :

« انت دائماً تتكلمين بالالغاز وتتلفظين بالكلمات السرية والغامضة. »

أجابت ميريام :

« إنّ أهم وقائع الحياة سرية الولادة... الحب... والموت... هل لاحظت كم يشبه نيكولا عمه بيريغرين ؟ »

اعتادت لورا التغييرات المفاجئة في حديث ميريام فأجابت :

« هذا لا يسبب الاستغراب. حسب كليوباترا، بيريغرين يشبه ترويلوس تماماً. »

« نعم وبا للأسف ! لكن دومنيك هو الذي سيربي الصبي. »

فوجئت لورا وفتحت عينيها دهشة فاستغربت ميريام الأمر وقالت :

« كنت أتصوّر أنك تعرفين ذلك ! »

صمتت الامرأتان مدة طويلة واحتلت لورا خيبة أمل كبيرة وانصرفت ميريام الى أعمالها في صورة اعتيادية.

وراحت لورا تتخيّل كليوباترا وبيريغرين، لا بدّ أنهما يتعانقان في هذا الوقت بالذات. في الصباح بينما كانت لورا تهم بالدخول إلى غرفة نيكولا حاملة له الهدايا، التقت بيريغرين خارجاً في بيجامته من غرفة كليوباترا ولم يبدو منزعجاً على الإطلاق. بينما كانت لورا مستاءة ومصدومة جداً. كيف بإمكان كليوباترا أن تقبل بالزواج من دومنيك بينما كانت تهب نفسها لأخيه ؟

لم يظهر دومنيك إلاّ في المساء. التقته لورا على السلالم. فتوقف بضع درجات أسفل منها ولدى رؤيتها شعره الأسود المبلل والشعث تتخلله شعيرات بيضاء، شعرت بالذوبان يحتلها. فرفع نحوها عينيه الزرقاوين الجميلتين :

« هل تعرف أنّ في رأسك شعيرات بيضاء ؟ »

أجاب بلهجة ساخرة :

« آه نعم، إنّ مرآتي تظهر لي هذه الحقيقة المخيفة، صباح كل يوم. »
تغيّر تعبير وجهه عندما لاحظ ظلال دموع على وجه لورا، فسألها:
« ما بك؟ »
أسرعت تقول لتطمئنه:
« لا شيء، لا شيء... »
« هل بكيت بسبب بيريغرين؟ »
ربما تعاستها ناتجة عن تصرف بيريغرين وكليوباترا، فهزّت رأسها موافقة. لكن دومنيك ويا للأسف لم يتمكّن من تفسير صحة جوابها. فقال لها في صوت قاس كأنه يذكرها:
« بيريغرين شاب جذاب، وفي الوقت نفسه شاب فاسق أيضاً، لا تنسي ذلك، يا لورا. »
لم يبدُ دومنيك هو نفسه وعاد يصعد السلالم من دون إضافة كلمة.
الريح طردت الغيوم خلال الليل وفي اليوم التالي كان الطقس جميلاً وجافاً. ذهب بيريغرين بنزه الكلاب وكان دومنيك يعمل في أنحاء البيت مع آموس. فقررت لورا اصطحاب نيكولا في نزهة صغيرة. ولدهشتها أعلنت كليوباترا رغبتها في مرافقتها. هذا ما كانت تخشاه لورا، خائفة أن تضطر إلى تحمّل وقاحة ابنة عمتها واصرارها على استقصاء الاسرار من لورا.
وبينما كانت الامرأتان تتنزهان على شاطىء البحر مع الصبي، قالت كليوباترا:
« اعتقد أنك أفدت جداً من خروجك مع بيريغرين نهار السبت. وأنا، في هذا الوقت، نجحت في مهمتي، يا حبيبتي. ان الظروف بدأت تتحسن! »
«صحيح؟».
يا ليتها كانت وحدها! لكن ماذا بوسعها فعله؟ انتظرت آملة ألاّ تتأخر كليوباترا في خوض الموضوع، وسرعان ما صرخت تقول:
« تخلّي عن دومنيك يا لورا! »
فوجئت لورا وقالت:

« اسمعي، يا كليوباترا، دعيني وشأني. لست أنا من سيؤخر تحقيق مشاريعك. وسبق أن ردّدت على مسمعي بأن دومنيك ليس مهتماً بي ولا يهمه أمري. »
تغلبت كليوباترا على اضطرابها وأمسكت بذراع ابنة خالها وقالت:
« لا أريد أن أجرح شعورك، يا حبيبتي. لكني أشعر فقط بأنك تميلين قليلاً إلى دومنيك ولا أريدك أن تتألمي. لكني احذرك بأنني إذا قررت أن أغريه، فليس لديك أي حظ ضدي. »
وتحت السماء الزرقاء بدأت الفراشات تطنطن معلنة قروب حلول فصل الصيف. وفكرت لورا أنها متى عادت إلى لندن، فسوف تتذكر جمال هذا اليوم بالذات.
سألت في صوت غير مبال وهي تسحب ذراعها من يد كليوباترا.
« إذن، عرض دومنيك عليك مشاريعه؟ »
« اتفقنا على مستقبل نيكولا. هل أنت مسرورة الآن؟ »
أجابت لورا باشمئزاز:
« كلا. أنت على علاقة مع بيريغرين. ولا يمكن أن تفكري في الزواج من دومنيك قبل أن تقطعي علاقتك مع بيريغرين. ألا تشعرين بواجبات تجاه دومنيك؟ »
وبّختها كليوباترا قائلة:
« آه، اسكتي! لا تتدخلي في شؤون لا تعنيك! »
وبعد هذا الحديث، توقفتا مدة طويلة عن الكلام. وران صمت ثقيل، أخيراً قالت كليوباترا:
« لنتصالح يا لورا. أنت أصبحت فتاة ناضجة وبالرغم من أنّ الخبرة تنقصك، فباستطاعتك أن تعرفي مدى تعقيد الوضع الذي أجد نفسي فيه، أليس كذلك؟ »
أجابت لورا في نعومة:
« طبعاً. بيريغرين بالنسبة اليك يجسّد لك ترويلوس، ولا يمكن التخلّي عنه من أجل دومنيك الذي يستحق كل حب وحنان. »
ما كان يجب عليها أن تكون صريحة هكذا. فقالت كليوباترا التي احمّر

وجهها :

« لا تعتبري نفسك العمة فلورا بالذات. في كل حال، أنت في وضع سيء ولا يمكنك أن تحكمي على الصفات الحسنة لدى كل من بيريغرين ودومنيك. »

خاب أمل الفتاة فنادت نيكولا أن يقترب منها. وفي الوقت نفسه ظهر بيريغرين مع الكلاب التي هرعت بفرح الى الصبي الذي انبطح أرضاً وراح يطلق صرخات مرعبة.

هتفت لورا غاضبة وقالت :

« مُرْ الكلاب أن تبتعد عن الصبي، أنت تعرف تماماً أنه خائف! »

« لن تؤذيه الكلاب. »

لكنّه أمرها بالسكوت والابتعاد عن الولد فاقتربت لورا من نيكولا وركعت قربه محاولة أن تؤانسه وهو لا يكفّ عن البكاء.

قالت كليوباترا مشمئزة :

« يا له من جبان! أنت يا بيريغرين، اصنع منه رجلاً شجاعاً! »

فقال ماداً ذراعيه للصبي :

« تعال، يا نيكولا. »

وبالرغم من صلبته، تقدّم الولد بتردد من عمه الذي كان يشجعه مردداً :

« تعال، تعال! »

ولمّا وصل نيكولا قرب الرجل جمّده مكانه وراح يهيج الكلاب التي عاودت القفز والعواء... لا هو ولا كليوباترا أعارا انتباهاً لنصائح لورا. وبعدئذ حمل بيريغرين نيكولا على اكتافه ومشى حتى طرف الصخرة، فصرخت لورا في رجاء قائلة :

« توقف. لقد أصيب بدوار. »

لم يعِ بيريغرين وكليوباترا قساوتهما. كانا يشعران معاً بلذة بدائية ليبرهنا عن جرأتهما ووقاحتهما في الاضرار بانسان أضعف منهما.

فجأة، رجعت الكلاب التي كانت تلحق بيريغرين الى الوراء وهي تهز بأذيالها. فالتفتت لورا الى الوراء ورأت دومنيك يتقدم في خطى سريعة وهو

يصرخ :

« ماذا يجري هنا؟ لقد وصل صراخ نيكولا حتى المنزل. »

أجابت كليوباترا ضاحكة :

« آه، قامت قيامته ولم يعد يتوقّف عن الصراخ والبكاء لأنّ الكلاب لحست وجهه. وبيريغرين يعلّمه الآن أن يصبح رجلاً. »

قالت لورا في صوت خفيض :

« الشراسة والعنف لا يحدثان الا الخوف. »

لاحظ دومنيك شحوب وجهها، فنصحها في نعومة قائلاً :

« اجلسي على العشب، يا لورا. سأهتم بك بعد قليل. »

ثم التفت الى كليوباترا من جديد وسأل بقسوة :

« أريد أن أعرف تماماً كيف تنوين أن تشفي ولداً من خوفه من الكلاب وهو على الاكتاف في مكان فارغ؟ »

شرحت كليوباترا مظهرة بعض الارتباك لرؤية قساوة دومنيك الواضحة :

« إنه القسم الثاني من الدرس. أنت... أنت تتمنى أن يصبح نيكولا تريفاين حقيقياً، اليس كذلك؟ »

قال في سخرية حزينة :

« اني آسف أن تعتبري تريولوس النموذج الوحيد لآل تريفاين. »

كانَ بيريغرين قد لحق بهما واضعاً الصبي على الأرض. وبينما كانت لورا تتأمل الشقيقين في امعان لاحظت الشبه الكبير بينهما. الشعر الأسود نفسه والملامح المتوحشة ذاتها... لكن عندما لمس دومنيك لا ارادياً الكدمة في خدمه، اختفى التشابه كلياً. وتحت شمس الخريف بدا دومنيك أكبر سناً من أخيه الجذاب، صاحب الوجه البسيط الذي لم يعرف أي اثر للتجربة أو الألم. تأملت لورا دومنيك مدة طويلة الى أن خرج قائلاً :

« هل جننت، يا بيريغرين؟ انصرف من هنا بسرعة. سأهتم بالصبي! »

قال بيريغرين ساخراً :

« حتى الآن لم يقبل منك أن تهتم به. »

كان نيكولا واقفاً مكانه من دون حراك مثل عصفور خائف، مسمراً في الأرض بفعل الرعب.

قال له دومنيك في لطف :

« تعال. لن تؤذيك الكلاب، اني أعدك بذلك. تعال، فسنلعب لعبة الحصان الفارن وسأعيدك الى المنزل. »

قال بيريغرين وهو ينحني ليحمل الولد في ذراعيه :

« من الأفضل ان تأتي الى العم بيريغرين. »

فصرخ الولد وهو يركض نحو دومنيك :

« كلا. كلا! سيكون عمي دومنيك حصاني الى الأبد. »

لم يقدر بيريغرين أن يخفي تحديه وقال صارخاً :

« يا لك من ولد كافر! لنذهب يا كليوباترا، يبدو أن ليس لنا ما نفعله هنا! دعي دومنيك يقبل نيكولا! لورا؟ لا، أعتقد انها ستبقى. فهي أيضاً تستحق القبل! »

تأبط ذراع كليوباترا ومشيا من دون مبالاة وبعد بضع خطوات، لم تقدر ان تمتنع عن القول :

« اليوم. سجلت علامة، يا أخي الكبير، لكني سأسترجعها في الغد. »

٨- أحزان النعجة البيضاء

تمددت لورا على العشب وأغمضت عينيها، محاولة جهدها أن تسيطر على الارتجاف العصبي الذي يهز كيانها. ما كان يجب عليها أن تشغل بالها بنيكولا، اذ يبدو أن عمه نجح في تسليته. لكن ليس بامكانها أن تعود طفلة لتمكن هي أيضاً من اللجوء الى ذراعيه، فجأة، شعرت بيد توضع على جبينها، فانتفضت صارخة :

« نيكولا؟ »

جلس دومنيك قربها وراح يتأملها بنظرات قلقة ويقول :

« نيكولا على ما يرام. ربطت حول عنقه منديلاً وهو يلعب الآن لعبة الفرصان. »

ولما انتصبت واقفة اكتشفت فعلاً أنّ الصبي يركض كان شيئاً لم يكن،

حاملاً في يده قضيباً بدل السيف. فصرخت تقول :
« الاولاد رائعون! »
حاولت أن تضحك، لكنها انفجرت في البكاء فجذبها دومنيك نحوه وقال :
« يمكنك البكاء اذا كان البكاء يخفف من آلامك. »
فبكت مدة طويلة وهي مشدودة اليه ثم انتهت في القول هامسة :
« اعذرني، أنا آسفة. »
« هل تشعرين بتحسن الآن؟ »
« أنا آسفة أن أكبدك مثل هذا المشهد، يا دومنيك. يكفيك ما عانيته من انزعاجات اليوم. »
قال مازحاً :
« ألم تلاحظي أنّ المشاحنات المستمرة تتكاثر في حياة آل تريفاين؟ ليست هذه هي المرّة الاولى التي تبكي فيها على كتفي. »
« لا تكلمني عنها، أرجوك. اني خجولة من أمري! »
« كنت تظنينني الشيطان بعينه، هل تتذكرين؟ »
كانت تعبة من سخريته الطيبة. ألن يكفّ دومنيك على معاملتها كفتاة صغيرة؟ بدا وكأنه عرف ما يدور في ذهنها، لذا تابع يقول بصوت واضح :
« أنا.أنا كذلك، يا لورا. لكن أرجوك ألاّ تغضبي مني. إنه نوع من الدفاع عن النفس. »
« سبق أن قلت لي هذا الكلام في المرّة الماضية. لكن أنا لست بفتاة صغيرة. »
شدّ دومنيك ذراعه حولها وراح يلامس بنعومة وجهها ويقول :
« أعرف ذلك. لكنك ما تزالين صغيرة. . . وسريعة العطب. أحياناً أخاف أن. . . »
توقف عن الكلام كأنه على وشك أن يفضح أمره، وشعرت لورا بالاحمرار يملأ وجهها.
وفهمت لورا أن كليوباترا وبيريغرين لم يفصحا لدومنيك عن معرفتها للعواطف التي تكنها لورا له والتي لاحظاها منذ الوهلة الاولى. والآن يحاول

دومنيك أن يحذرها. فهو لا يريد أن يشجعها حتى لا تتعذّب. وهذا المهم يفسر معنى برودته منذ يوم السبت.
صرخت وهي تفلت من بين ذراعيه :
« لقد مللت! »
« مِمّ؟ من شبابك؟ »
كانت نظرات دومنيك مليئة بالحنان وفي اضطرابها، أسرعت لورا بالموافقة على كلامه، فقال معلناً :
« لا تكوني فارغة الصبر، الشباب شيء ثمين. ومتى أصابه الكلل، يكون قد فات الاوان. . . هل سبق أن أخبرتك عن وقواق زينور؟ »
« كلا. »
« يحكى انه، مرّة في زينور، في منطقة كورنويل، قام القرويون ببناء سياج حول وقواق، آملين بذلك استبعاد فصل الربيع. »
كانت لورا مستندة على كوعها وتصغي اليه باضطراب وتوتر. لماذا يصرّ على اخبارها قصص الأطفال؟ لأنه يريد أن تفهم جيداً أنها ليست بنظره سوى ابنة صغيرة. ما دام الامر هكذا، فقد قررت أن تبدو متعاونة وقالت :
« يا لهذه الاسطورة! لقد أثرت بك، أليس كذلك؟ »
« وجدت تعريفاً لكلمة قارن في أحد القواميس القديمة. »
« آه صحيح! وماذا هو؟ »
« حفظته غيبا : « حصان القارن حيوان خرافي، له قوائم الايل، وذنب الاسد، ورأس وجسم الحصان، وقرن واحد. عيناه زرقاوان. . . ». »
توقفت لورا فجأة ونظرت الى دومنيك. قميصه المفتوح يظهر عنقه الرجولي. وشفتاه تبتسمان فرحاً وعيناه زرقاوان صافيتان في وجهه الاسمر. فقال ضاحكا :
« يا لهذا التطابق. »
« وبعد ذلك. . . يلمح الكتاب الى تاريخ و. . . و. . . هل انت الوحيد من بين آل تريفاين الذي يحمل العينين الزرقاوين؟ »
« نعم. أشبه بذلك والدي. وبما أننا في حديث عن حصان القارن،

حان لنا أن نعيد فرصاننا الى المنزل! »

سمع نيكولا كلمات دومنيك الأخيرة وأسرع نحوه في حماس وصرخ قائلا :

« حصان القارن! حصان القارن. »

فحمله عمه في لطف على كتفيه. وبينما كانوا يجتازون الارض الفائضة بالنباتات الربيعية، اجتاحت لورا غيمة من السعادة. مهما كانت تصرفات آل تريفاين نحوها، فسوف تحتفظ دائماً في اعماق قلبها بهذه الاحلام الرائعة التي سترافقها عندما تدق ساعة الرحيل.

لم يحبس بيريغرين الكلاب في اقفاصها، فأسرعت للقائهم. فتعلق نيكولا بخوف في عنق عمه لكنه لم يصرخ.

قال له دومنيك :

« حسناً، أنت شجاع يا نيكولا تريفاين! هل تحب أن يكون لك كلب صغير؟ »

أجاب الولد متردداً وفخوراً بلقب الشجاع :

« لا أعرف. هل سيكون لي وحدي انا؟ »

أنزل دومنيك الولد عن كتفيه وقال :

« طبعاً. »

قال معارضاً :

« لن تسمح لي كليوباترا أن اصطحبه معي. »

« ما تزال هنا، يا نيكولا. »

وكليوباترا التي كانت بانتظار ابنها سمعت جواب دومنيك فأسرعت نحوه وقالت :

« هذا لطف منك. إننا نشعر في بانسيون كأننا في منزلنا وبامكان نيكولا أن يحتفظ بكلبه ما دمنا نحن هنا. دومنيك، أرجوك أن تعذرني. كان يجب عليّ أن أمنع بيريغرين ان يلهو بحساسية ابني. بدأت الآن افهم تفاهة تصرفاته. اعذرني! »

قالت هذا في سهولة حتى أن لورا بدأت تشك في انها قد حضرته بانتظارهم. ثم أضافت :

« في كل حال، لقد حققت نجاحاً كبيراً. هذه المرّة فضلك نيكولا على بيري، وذلك بفضل سوء تصرفات هذا الاخير. »

صرخ الولد وهو يتعلق بطرف معطف عمه وقال :

« إنه حصان قارني! ».

اقترح دومنيك من دون ابتسام :

« هيّا بنا نأخذ كأساً. لورا في حاجة لأن تنسى ما حصل وتريح وترتاح من توترها. »

قالت كليوباترا في دهشة :

« لورا؟ »

كأنها تذكرت وجود ابنة خالها فجأة. ثم قالت باصرار كأنها ربة المنزل :

« آه، نعم! تعالي يا لورا لنشرب شيئاً. قضيت فترة عصيبة بسببنا. إني آسفة لما حصل، يا حبيبتي. »

فقالت لورا بلهجة قاطعة :

« لا، شكراً. أفضل أن أصعد الى غرفتي وأغير ملابسي قبل الغداء. »

سأل دومنيك مستعلماً :

« هل تشعرين بتحسن يا لورا؟ »

« نعم، شكراً »

بدت كليوباترا فرحة لوجودها وحدها برفقة دومنيك قبل حلول موعد الغداء فقالت :

« افعلي ما تريدين، يا حبيبتي. إذا كنت متصعدين الى غرفتك، فاصطحبي نيكولا اذن. »

قال دومنيك :

« أعتقد ان لورا بحاجة الى بعض الهدوء. أما بالنسبة الى نيكولا، فيستحق هو أيضاً أن يشرب شيئاً. تعال معنا، يا بني. »

لم تعارض كليوباترا بل ابتسمت ابتسامة عريضة وتبعته الى الدار. وفي هذه اللحظة ظهرت ميريام لتعلن أنّ الغداء سيكون حاضراً بعد عشر دقائق.

فقالت ميريام :

« لورا، يا ابنتي الحبيبة، تبدين مرهقة. سأقدم لك كأساً من شراب الورد. »

وافق دومنيك على اقتراح ميريام وقال:

« إنها فكرة جيدة. اهتمي بها يا ميريام. وقدّمي لها طعام الغداء في المطبخ، أعتقد أنها لا ترغب بتناول الغداء معنا. »

وبينما كان يدخل الى الدار مع كليوباترا ونيكولا، امتلأت عينا لورا دموعاً. إنه يقصد القول بوضوح أنه يتمنى البقاء وحيداً مع ابنة عمتها.

راحت لورا تتأوه وتقول:

« آه، يا ميريام! »

« لا تقلقي، يا عزيزتي لورا، دومنيك يعرف ما عليه فعله. »

« صحيح! »

وبعد اعتذار غير واضح، اختفت الفتاة وراحت تصعد السلالم بسرعة فائقة. لم تعد قادرة على تحمّل ميريام وملاحظاتها والغازها وشراب الورد. خارت قواها وفقدت صبرها.

اختفى بيريغرين عن الأنظار بقية النهار. لا شك أنه يتنقل من ناد الى آخر. وكليوباترا ودومنيك وُجدا وجهاً لوجه في حفلة غداء صامتة ومملة. ولمّا سأل دومنيك أرملة أخيه لماذا لم ترافق بيريغرين، تذرّعت بالتعب. لا تريد أن تقول له أنها تأمل في أن تزداد العلاقات معه عمقاً.

ولمّا عبر عن رغبته في الخروج في نهاية الغداء، قالت:

« حان الوقت للقيام بمحادثات جدية، يا دومنيك، ما رأيك؟ نحن هنا منذ عدّة أسابيع، ولا يمكن لهذا الوضع أن يستمر نهائياً، وخاصة في ما يختص بلورا. »

وافق معها قائلاً:

« بعد حادثة هذا الصباح، من الأفضل أن نناقش في الأمر. »

جلست كليوباترا قرب المدفأة المشتعلة برغم حرارة الطقس وجلس دومنيك وراء مكتبه بدلاً من أن يجلس قربها، فراحت تحاول المزاح وتقول:

« تبدو مثل معلم مدرسة، يا عزيزي! يتهيأ لي أنك ستوبخني. »

« أنا لا أوبخ أحداً، ما عدا بيريغرين الذي اضطر أن اذكره بواجباته من وقت إلى آخر. »

« ولورا؟ »

« لم يسبق أن وبختها قط! إلى ماذا تلمّحين؟ »

كانت ردّة فعله عنيفة. فكلّما دار الحديث حول لورا تراه سريع الغضب، فقررت اغتنام هذه الفرصة والقول:

« غير أنه يبدو لي... ربما أنا على خطأ... لكنك تخيفها بعض الشيء. لا شك أنك تلاحظ ذلك. هناك عدد كبير من الفتيات اللواتي يحببن أن يخيفهن الرجل... خاصة إذا أخذهن بين ذراعيه ليدفع بهن الى الثقة بالنفس. وهذا الشيء يمكنه أن يكون نوعاً من لعبة غرامية، هل تفهمني؟... لكن لماذا تنظر إليّ هكذا؟ هل أصبت الحقيقة؟ »

« كلا. أبداً. أرى أن لديك وجهة نظر رديئة عن ابنة خالك. »

تابعت كليوباترا بلهجة اعتذار:

« آه، لا شك أني مخطئة! كن متأكداً، يا دومنيك، أني لا ألومك إذا تسلّيت معها قليلاً إذا كانت تعجبك. لكنها في الوقت الحاضر، لا تفكر إلاّ في بيريغرين، سبق أن قلت لك ذلك. أخيراً، فلننسها ونتحدّث عن نيكولا. هل فكرت بمستقبله؟ »

كانت كليوباترا فرحة لأن كلماتها أحدثت في دومنيك نوعاً من الاضطراب الظاهري لم يتمكّن من اخفائه. إذن بيريغرين على حق. لورا الصغيرة نجحت في اضرام نار الحب عند الأخ الكبير. ولحسن الحظ أنها ما تزال ساذجة وبالتالي غير قادرة على الافادة من الوضع.

قال دومنيك بجفاف:

« لقد... لقد فكرت بمستقبل نيكولا. أنت برهنت لي ما فيه الكفاية عن خبرة في الحياة وأنك لا تنجرفين بسهولة في سياق العواطف مثل معظم النساء. لذلك يمكنني أن أكلمك من دون مواربة. »

شبكت المرأة ساقيها الجميلتين في أناقة وبطء. وخيّل اليها ان دومنيك لم يجد طريقة عاطفية ليعرض عليها الزواج، لكنها تنبأت بالأمر. لا يدخل الحب بينهما، لكن هناك تسوية وتدبيراً لصالحهما معاً. استرخى دومنيك في

مقعده وحدّق بكليوباترا في نظرة زرقاء فاجتاحت الفتاة قشعريرة ناعمة. إنه يملك بطريقته الخاصة جاذبية وسحر آل تريغاين.

قالت له في نفاد صبر :

« تكلّم. إنّ ما يلائمك يا دومنيك يلائمني أنا أيضاً بكل تأكيد. »

« هكذا كنت أظن. »

« ليس هناك أي شك. تكلم... في كل حال أعرف ماذا ستقول لي. »

« صحيح، يا كليوباترا ؟ في هذه الحال، اجراءاتي ستكون سهلة. كنت أجهل انك تملكين موهبة قراءة أفكار الغير، إضافة إلى جاذبيتك وسحرك. »

« في الحقيقة، لورا وضعتني على الطريق، تريد نيكولا، أليس كذلك ؟ »

« آه، بدأت افهم أفضل ! بالفعل، يا كليوباترا، إني أتمنى، ليس فقط أن أؤمن له حياة مستقرة من الناحية المادية، بل أنوي أيضاً تربيته. اريد أن أبذل جهدي كي لا يصبح مثل والده. واسمحي لي أن اقول لك أن تروبلوس كان مليئاً بالأخطاء. »

عارضت كليوباترا مبتسمة :

« لا تنسَ أن نيكولا ورث شخصيته عني أيضاً. »

« ألست أول من يقول علناً انك لست مؤهلة للاهتمام بالأولاد، يا ارملة أخي العزيزة ؟ »

« قلت إني لا أستطيع أن أقوم بهذا الدور وحدي. لم يسبق أن قلت اني أم جيدة. لكن، اذا وجدت رجلا يريد ان يحلّ مكان زوجي، ويسهر علينا نحن الاثنين... »

قاطعها دومنيك وهو يشعل غليونه :

« لا يجب الإتكال على ذلك كثيراً. أنا أكيد من انك ستتزوجين مرّة ثانية. لكن هذا الصبي يمكنه أن يكون عائقاً لتحقيق ذلك. إذا اهتممت به أنا في شكل كلي، أكون قد أفسحت لك المجال... »

صرخت قائلة :

« ماذا تقصد بذلك ؟ »

كان صوتها قوياً جعل دومنيك يرفع رأسه في الحال ويقول :

« اعتقدت أنك فهمت جيداً. إني اقترح عليك أن توكلي اليّ مهام الاهتمام بنيكولا كلياً. لا أنوي تبنيه إلاّ إذا كانت تلك نيتك. وبطبيعة الحال تظلّين حرّة لرؤيته متى شئت، وإذا تزوجت فبإمكانه أن يسكن معك. في كل حال، لست مسؤولة عنه كلياً، من الناحيتين المادية والمعنوية... ما بك، يا كليوباترا ؟ كنت أظن أنك ستقبلين عرضي بكل سرور... إنك لا تريدين الاحتفاظ بهذا الصبي، أليس كذلك ؟ »

قالت غاضبة :

« هذا ما قالته لك لورا، أليس كذلك ؟ »

« دعي لورا خارج هذه القضية. »

ران صمت طويل رأى خلاله دومنيك المشاعر المختلفة في ملامح وجه ارملة أخيه، التي رددت تقول بعد وقت غير قصير :

« إنها لورا. إن ابنة خالي الصغيرة حاذقة أكثر من الظاهر. لم تضع وقتها سدى. »

أكّد لها دومنيك من دون التخلّي عن هدوئه :

« أنت مخطئة، يا كليوباترا. »

« بيريغرين على حق. لقد وقعت بغرام النعجة البيضاء ! لكن لا تنسَ انها تفضل بيريغرين وتحلم أن تهبه كل كيانها. ربما سبق أن وهبته ذلك، من يدري ؟ »

ضرب دومنيك بمعصمه على مكتبه بعنف جعل كليوباترا تنتفض. نظرتها المهدّدة أعادت له هدوءه فجأة. فقال :

« عندما تنتهين من خطتك القذرة، بامكاننا حينذاك متابعة النقاش. »

قالت جاهدة في السيطرة على ارتجاج صوتها :

« لن أعطيك ابني. كنت اعتقد أنك تقدّم لي عرضاً مناسباً. »

ظلّ جامداً وسألها :

« وما هو ؟ »

« آه، يا دومنيك، ستجعلني مجنونة ! أنت تعرف جيداً بماذا أفكر ! هل

تكرهني إلى هذه الدرجة. أو أنني غير جديرة بكبار آل تريفاين ؟ »

احتدّت وهي تتكلم، ثم نهضت واقفة وعيناها تلمعان وشفتاها تهددان ثم اقتربت من دومنيك الذي انتابه شعور بالشفقة. قال :

« لا تطرحي أسئلة حرجة. أنا أفهم انك حلمت بالتوصل إلى نتيجة مزدوجة. أرجوكِ لا تأملي خيراً. »

« لماذا ؟ أليس هكذا يتصرف ويفكر آل تريفاين ؟ »

« البعض منهم، ربما، لكن أنا لا أفكر هكذا. عودي إلى مقعدك، من فضلك ولنتابع موضوع حديثنا. »

وبدلاً من أن تنفذ ما طلب منها، انحنت صوبه فوق المكتب وابتسمت له إبتسامة تحد. وقالت :

« آه، لا. عندي شروط عليّ طرحها عليك. إني أصرّ على الزواج منك ! »

قال دومنيك في هدوء مزعج :

« أنا أكيد يا كليوباترا، أنك لا ترغبين ولا لحظة في أن تصبحي زوجتي. ربما تصرين على أن أقول لك كل شيء، فلست أنوي أن أتزوج من امرأة تخونني تحت سقف بيتي مع أخي. أليس هذا ما كنتِ تودينه ؟ »

وضعت كليوباترا يدها بعنف على كلمة دومنيك وشعرت بلذة كبيرة إذ رأته قد شحب وجهه غيظاً، فنبّهها قائلاً :

« « لا تحاولي إعادة ما فعلته الآن. وأرجوكِ أن تخرجي من هنا في الحال. سنستعيد هذا الحديث عندما تستعيدين وعيك. »

كانت تغلي غضباً فقالت قبل أن تختفي عن الأنظار :

« سأذهب، يا دومنيك، لكنك لن تشتريني بسهولة. ولا تنسَ أن بيريغرين ليس بخيلاً ولديه الكثير لإعطائي. ولورا استحقت كرمه أيضاً. . . انه يسرق حبيبتك كما فعل ترويلوس في الماضي. أليس الأمر شديد الغرابة. »

من رأى تعبير وجه دومنيك في هذه الأثناء، يمكنه القول بأن كليوباترا كانت فخورة جداً لدى خروجها من هذا اللقاء.

وبعد فترة قصيرة، وجدتها لورا في السرير، وقد اعترتها نوبة بكاء

وغضب. وعرفت من تجربتها السابقة أن عليها أن تتركها حتى تهدأ وحدها. أخيراً سألتها :

« هل وبخك دومنيك بسبب نيكولا ؟ »

« وبخني ! هل تعتبرينني تلميذة مدرسة يؤنبها المعلم رافعاً صوته ويجعلها تبكي ندماً. هذا ما يحصل معك أنتِ، لأنك وقعت في حب دومنيك ! لا تنكري. لقد رأيت وجهك صباح اليوم عندما وصل إلى شاطىء البحر. »

ارتجفت لورا لكنها توصلت إلى الرد بعزة نفس قائلة :

« ما أشعر به تجاهه لا علاقة لأحد به. »

« أنت مخطئة، أيتها النعامة الصغيرة ! دومنيك منزعج من ذلك. إنه حزين لأنك اعتبرت لطفه ولياقته، عواطف شخصية. ووكلني أن أحذرك بخطورة الأمر. »

قالت لورا ساخرة :

« هل أنت الآن تبكين لهذا السبب ؟ »

ألم يسبق أن حذرها دومنيك بنفسه في شكل سرّي عندما كانا معاً برفقة نيكولا، بعد ذهاب كليوباترا وبيريغرين ؟ بدأت الأمور تتضح في رأسها. الحوادث مترابطة. . .

تابعت كليوباترا تقول :

« آن لك يا لورا أن تتعقّلي. دومنيك لا يفكر فيك ولديه نوايا أخرى، صدقيني ! في كل حال، يريدك أن تبدأي بالتفكير في الرحيل من هنا. »

أجابت لورا في صوت مطفأ :

« حسناً. وأنت ؟ هل وصلت إلى اتفاق يناسبك في ما يتعلق بنيكولا ؟ »

« آه، نعم. الوضع في تحسن مستمر ! لن نذهب معك، بكل تأكيد. »

« جيد جداً. »

فرحت كليوباترا لرؤية اضطراب لورا وارتخاء تقاطيع وجهها، وقالت لها :

« تشجعي يا لورا الصغيرة. وفكري جيداً بما ستفعلينه. وسترين أنّ

دومنيك ليس إنساناً قاسياً. »

« ماذا تعنين بذلك ؟ »

« ألم تقولي له بأني لا أدفع لك ثمن اهتمامك بنيكولا ؟ »

لم تفهم لورا اتهام ابنة عمتها، ثم تذكّرت لقاء قديماً حصل بينها وبين دومنيك حين فتح دومنيك بنفسه هذا الموضوع.

« لم يسبق أن تذمّرت لهذا الأمر، ابداً. »

نهضت كليوباترا وجلست أمام منضدة الزينة لتزيّن وجهها وقالت :

« في كل حال، فهم أنك تريدين بعض المال. ولن يدعك تذهبين من هنا من دون أن يقدم اليك مكافأة مالية لما قمت به من مساعدات تجاه نيكولا. على الأقل سيعتبرك مثل اي موظفة جيدة. »

« أشكرك لإعلامي بالأمر. لن أقبل درهماً واحداً منه. »

قالت كليوباترا التي شفيت من أزمتها العصبية في سرعة رهيبة :

« ستكون الضربة قاسية لعزة نفسك. »

في الوقت الحاضر كانت لورا هي التي تبذل جهداً لكبت دموعها. فخرجت بسرعة من غرفة ابنة عمتها والتقت بدومنيك في أسفل الدرج. فقال في استغراب :

« آه، لورا. هل بإمكانك أن تعطيني قليلاً من وقتك ؟ اريد ان احدثك. »

وبالرغم من رغبتها في أن تتحاشاه، اضطرت إلى أن تتبعه حتى غرفة المطالعة. هل سيطلب منها بنفسه أن تغادر بانسيون ؟

سألها كأنه يؤكد تخوفاتها :

« ما هي مشاريعك للمستقبل ؟ هل عندك وظيفة اكيدة ؟ »

« كلا. سأضطر للبحث عن وظيفة. »

« في هذه الحال، أقترح عليك أن تبقي هنا. »

فتحت عينيها اندهاشاً. كانت تنتظر منه أي شيء إلّا هذا العرض. ثم قالت بصوت متقطع وهي تتفحصه هامشياً :

« لا أفهم. »

بدا لها غامضاً ومتعباً وحزيناً. فقال :

« لكن عرضي واضح للغاية. احب أن تستمري في الاهتمام بنيكولا. »

كان يتكلّم وهو يذرع أرض غرفة المكتبة ذهاباً وإياباً. لم يفكر في أن يدعوها إلى الجلوس. فاضطرت لورا أن تتكيء على جدار المدفأة لأنها شعرت فجأة أن قدميها تخوران. كان يحدثها في خجل لم يشعر به من قبل، فقالت :

« تريد أن توظفني كمربية أطفال. »

« يا إلهي، لا ! بل آمل ألّا يتغيّر شيء وأن تبقي ضيفتي كما هي الحال الآن. »

همست تقول :

« غير أنني فهمت أن إقامتي هنا قد طالت. »

« من قال لك هذا الكلام ؟ كليوباترا ؟ »

أجابت بجفاف :

« لست في حاجة لأحد كي أفهم أن وجودي هنا بدأ يثقل. »

« صحيح ؟ وماذا ستفعل لورا بحياتها عندما تترك بانسيون ؟ »

كان يتكلم كأنه أب يحادث ابنته في حنان، ابنته الصغيرة التي ما تزال تنقصها تجربة الحياة.

فقالت لورا غاضبة :

« كفّ عن معاملتي مثل ابنة صغيرة. أنا اعيل نفسي منذ سنتين. وقد بدأت أملّ حركاتك ».

ابتسامته الحنونة ما لبثت أن غادرت ملامح وجهه، فقال منزعجاً :

« عفواً. لا أعرف كيف أتصرف معك... اسمعيني.. أنا في حاجة إليك، يا لورا. »

ولدى سماعها هذه الكلمات، شعرت بضعف يحتلها وقالت في صوت غاب عنه الأمل :

« ماذا تريد مني ؟ ماذ تنتظر مني أن أفعله ؟ »

وفي عنف غريب، أجاب في الحال :

« ما لا يمكنك أن تعطيه لي أبداً. هل توافقين على البقاء ؟ »

« بما أنك اتفقت مع كليوباترا في ما يختص بنيكولا، لا أرى ضرورة للبقاء. »

« هل رأيت ابنة عمتك بعد ظهر اليوم ؟ »

« نعم. كانت في حالة توتر غريب. »

« ماذا قالت لك ؟ »

« في خصوص نيكولا ؟ إن الأمور تجري في الطريق الصحيح وأنها ستبقى معه في بانسيون. »

« هل قالت لك إذا كانت تنوي الاهتمام بابنها هي، بالذات ؟ »

« لا، لم نتحدث عن هذا الموضوع. بإمكان ميريام الاهتمام بالأمر بضعة أيام حتى العثور على تدبير آخر، حسب ظني. »

« هل يعني ذلك أنك لا ترغبين حقاً في البقاء هنا ؟ كنت أعتقد أن المكان يروق لك وأنك مسرورة بوجودك هنا. هل تريدين الذهاب للتهرب من بيربغرين ؟ »

« بيربغرين ؟ كلا... آه لا ! إلى ماذا تلمّح ؟ »

توجهت نحو الباب مقررة أن تنهي هذا الحديث الغريب والمؤلم. تقدّم منها دومنيك وأمسكها بكتفيها وقال :

« ماذا جرى، يا لورا؟ كان تصرّفك معي غريباً خلال عطلة نهاية الاسبوع. »

« من الصعب عليّ أن أكون طبيعية مع السيد الجشع. »

امتدّت يدا دومنيك من كتفيها حتى معصميها. وانحنى فجأة أمامها ليعانقها. كان عناقه عنيفاً ومتطلباً، فاستسلمت لورا للأمر من دون أن تفكر في الدفاع عن نفسها. لو لم يكن ممسكاً بيديها لوضعتهما حول عنقه. فجأة ابتعد عنها بالعنف نفسه وقال :

« أنا آسف لما حدث، لكنك أنت الذي دفعتني الى ذلك. لم اعد احتمل أن يقال لي اني سيد جشع. هذا اللقب من تأليف بيربغرين، ولا اريد أن اسمعه اطلاقاً. »

« أطلب منك أن تعذرني، يا دومنيك. لم أكن أقصد أن أجرح شعورك. »

« أنا المفروض فيّ أن اعتذر منك. »

« هل ستغضب مني إذا قلت لك إن السيد الجشع لا يعتذر ابداً؟ »

جعلته يضحك، لكنه عاد الى ما كان يشغل باله وقال :

« لم آخذ جواباً بعد. »

« على ماذا؟ »

« على عرضي. »

أعلنت في مرارة :

« انك لا تخلو من العروض، على ما أظن. لقد قدمت عرضاً الى ابنة عمتي منذ قليل. »

جالت ببالها من جديد القرارات التي تمّ الوصول اليها مع كليوباترا. ولم يلاحظ حزنها وراح يشرح لها قائلاً :

« أريد أن أجنب نيكولا الوقوع في تغييرات مفاجئة. ذهابك سيؤدي به الى صدمة سيئة. »

ولما رأى الحزن يرتسم على وجه لورا أسرع بالاضافة قائلا :

« هل ارتكبت خطأ آخر من جديد؟ أريد أن أقول فقط أن الصبي يحب مومو كثيراً. وإذا كان العائق مادياً، فسوف تنالين معاشاً محترماً. »

تذكرت كلمات كليوباترا وقالت :

« ومكافأة عندما سأغادر؟ »

تقلّص وجه دومنيك من دون أن تلاحظ لورا انكماشه وقال :

« طبعاً، اذا كان هذا ما كنت ترغبين فيه. عليك أن تربحي قوتك واني افهمك جيداً. »

هذا أكثر ما كانت لورا قادرة على تحمله. خلال عطلة الفصح هذه، تراكمت خيبات الأمل والمعاكسات والموانع وانصبّت كلّها عليها. وحلّ الغضب مكان طيبتها الناعمة وصرخت تقول :

« لن أقبل درهماً واحداً منك! مع كليوباترا كل الحق ان تحذرني من نواياك السّيئة! »

وانفجرت بالبكاء ولما حاول أن يأخذها بين ذراعيه، رجعت الى الوراء في سرعة. فهمس بصوت مرتبك :

« يا عزيزتي لورا، لم أكن أقصد أن أجرح شعورك. ماذا أخبرتك ابنة عمتك اللعينة؟ »

كانت لورا شديدة التوتر لتلاحظ أن كلمة « لعينة » صفة غريبة تطلق على زوجة دومنيك في المستقبل. فصرخت والدموع تنهمر في قوة :

« الحقيقة! اذا بقيت، فسأبقى من أجل نيكولا فقط وبامكانك أن تحتفظ بمالك لك... لكن لا أعتقد أنني سأبقى. آل تريفاين ضحكوا مني ما فيه الكفاية. انسيت أن لي عزّة نفس وكرامة! »

صرخ دومنيك :

« لماذا وقعت في الغرام... »

في هذه اللحظة بالذات انفتح الباب على بيريغرين الذي قال :

« آه، آه! لورا تبكي! »

أمره دومنيك في حدة :

« اخرج من هنا. أنت مترنح! »

لكن لورا تعلقت به وقالت :

« خذني من هنا، يا بيريغرين، لا أريد البقاء في هذا المنزل! »

رمق أخاه بطرفة عين وأمسك الفتاة في خاصرتها وأخرجها من المكتبة وسألها :

« هل تعتقدين أني مترنح حقا؟ »

كانت قد وضعت جبينها الساخن على تمثال القارن البرونزي الموجود في البهو وشعر بيريغرين بحس داخلي وهو ينظر اليها، فأجابت لا مبالية وهي تجفف دموعها :

« لا أعرف. لماذا عدت باكراً؟ »

« هكذا بدافع الفضول... أو بالاحرى بسبب ندمي. تركت أرملة أخي الرائعة تواجه غضب دومنيك وحدها. هل وبّخها كثيراً بعد حادثة الصباح؟ »

« ينهيا لي ذلك، لكن... »

« لكن المحتالة نجحت في الانتصار على الموقف وتحويله الى صالحها. هل توصلت الى معرفة مشاريع أخي المستقبلية؟ »

« نعم. »

« حسنا! اذهبي واغسلي وجهك وتعالي الى هنا بعد نصف ساعة لآخذك الى ناد ليلي. يجب أن اتكلم مع ابنة عمتك. »

صعد السلالم ولمّا وصلا الى اعلاها، التفت الى الوراء. كانت لورا ما تزال مسندة خدها على حصان القارن. فقال قبل أن يتوجه الى غرفة كليوباترا :

« آه، أيتها الغبية الصغيرة! »

كانت كليوباترا ما تزال جالسة أمام منضدة الزينة تنهي تزيين وجهها. فقال بيريغرين :

« مرحباً، يا عزيزتي. يبدو أنك عانيت مشاكل جمّة مع أخي الكبير؟ »

كذبت تقول :

« وذلك بسبب مآثرك. »

« وماذا بعد؟ »

« لم احصل على ما كنت أريده. »

« لست أستغرب الامر، يا جميلتي. دومنيك ليس كبقية آل تريفاين. لذلك ليس مؤهلا ليكون لك. »

لاحظ استياءها فأضاف :

« اكتفي بما عرض عليك. لماذا تصرّين على الزواج منه؟ لا أعرف انك تتمتعين بحس خلقي. »

« الحياة أسهل عندما يكون المرء قد أدى ما عليه مع القانون. »

« هل تريدين في الوقت نفسه استقرار الزواج واستمرار علاقتنا؟ »

قالت مندهشة :

« أليس هذا ما ترغب به؟ »

تمدد بيريغرين من غير انزعاج على السرير وقال :

« فكرت بالأمر، لكن... مجرد التفكير بالامر، أشعرني بالاشمئزاز. نعم. إنني مشمئز! لا أعرف ماذا حصل لي. لا شك اني أملك روح الشرف، من دون ان اعرف ذلك واعيه! »

قالت ساخرة :

« هل تتصرّف كما يتصرف دومنيك؟ »

أجابها في هدوء :

« آه، لا! هيا، قولي ما كان اقتراح الاخ الكبير. ليس الزواج، إني أكيد من ذلك الآن، اذن ماذا؟ »

كادت أن تخبره تفاصيل لقائها المهين، لكنها لم تثق ببيريغرين الذي لا شك يريدها له. فاكتفت بالقول :

« اقترح عليّ أن يهتم هو بنيكولا كلياً، مادياً ومعنوياً. »

« يجب عليك أن تقبلي هذا العرض من دون تأخير بدل الاستمرار في العناد على الزواج. »

« إذا أراد دومنيك الحصول على حضانة نيكولا، فهو في حاجة لان يقبل شروطي. »

« هل نسيت لورا، يا عزيزتي، وحصان القارن! »

أجابت في عنف :

« آه، لا تضايقني بهذه الاسطورة السخيفة! في كل حال أقنعت دومنيك ان لورا خسرت براءتها معك. وبما أنه يعرفك تماماً. . . »

« يا لك من امرأة حقود وانتقامية. . . ما بك، يا كليوباترا؟ لا تعانذي في حماقة وتفاهة. في الحقيقة، أنت تأملين أن تتخلصي من نيكولا وانت لا تشعرين تجاه دومنيك بأي عاطفة، ماذا اذن؟ »

في هذه اللحظة، يذكرها بيريغرين المبدد على السرير بزوجها الفقيد ترويلوس. فراحت تدرسه وتحسب الحظوظ من أجل أن تحصل منه على الزواج منها. فقالت في تحدّ :

« أنا امرأة انتقامية وحقود مثل آل تريفاين! إني تريفاين بالذات! »

نهض بيريغرين ليجلس المرأة الى السرير معه. وقال وهو يعانقها :

« آه نعم! لقد أسرت قلبي كما حصل مع ترويلوس. كنت أفكر حتى في الزواج منك عندما قررت اغراء دومنيك. لا تعانذي يا كليوباترا! »

سألته وقد وترتها لمساته :

« ماذا تقصد بهذا؟ »

« سنتكلم بالأمر فيما بعد. . . فيما بعد. . . »

ولما وجدت نفسها وحدها، بقيت كليوباترا لحظة متمددة على السرير وتفكر. تذكرت أحلام مراهقتها، وأحلام الحب والبراءة واللطف. ثم فكرت أن ذهاب بيريغرين مع لورا سيفسح لها المجال مرّة أخرى للتحدث مع دومنيك. فارتدت ملابسها وراحت تبحث عنه. وفي هذا الوقت كان بيريغرين قد اصطحب لورا الى « سانت موان ». لقد ندم على دعوته لكنه لا يريد التراجع. ومن جهتها شعرت لورا بارتياح للابتعاد عن بانسيون.

في آخر الحانة المليئة بالضجيج والضحك، بدأ الحديث يمطّ وبدا بيريغرين نكد المزاج.

قالت لورا لنفسها في صوت مرتفع كما هي عادتها :

« لا أريد الالتزام. »

« الالتزام بماذا؟ »

« الالتزام بقضايا بانسيون. »

« لكنك التزمت، يا حلوتي! الم تهبي قلبك السخيف الى السيد الجشع؟ »

اخفضت رأسها فنصحها بيريغرين بالشراب لتنسى همومها وكدرها، فقالت في حزن :

« نحن الاثنين تعيسان، أليس كذلك؟ »

تأثر بيريغرين فجأة بنظراتها الكئيبة وشعرها الناعم المجعد حول عنقها النحيل. انحنى نحوها ليفحص وجهها عن كثب ولمس خدها بيده. فابتسمت له لورا.

في هذه اللحظة بالذات، انتبه بيريغرين الى صمت عابر في الحانة. فشعر بقلق والتفت وراءه نحو الباب، وتبعت لورا اتجاه نظره.

كان دومنيك هناك واقفاً، وفي يده كأس. كان يحدق فيها بتعبير رهيب جعل الفتاة تطلق صرخة قوية.

٩- عناق عند الغروب

اتضحت صورة دومنيك على ضوء الحانة. وتهيأ للورا خلال لحظة قصيرة أنه ستتابها الرؤية التي حصلت لها في النهار الاول لوصولها الى المحطة. لكن سرعان ما تبدّد هذا التوهم الباطل.

اقترب دومنيك من طاولتها وسأل في لهجة عادية :

« هل أنتما مستعدان للعودة؟ »

كانت الفتاة تنتظر حصول انفجار غاضب. لكن هدوءه المفاجىء كان بمثابة دوش بارد، فأسرعت تقول :

« نعم. نحن عائدان، أليس كذلك، يا بيريغرين؟ »

وبدل القبول تمكّن الرجل في كرسيه وتناول كأسه بهدوء وقال :

« اسمعني جيداً، يا دومنيك، لا اسمح لك أن تظهر فجأة لتعكر صفو

تسليتي وتفرض عليّ الأوامر. »

« ليس هذا أمراً بل مجرد سؤال. هل أنت مستعدة للعودة، يا لورا؟ »

أجابت في تخوف :

« نعم. »

نهضت ثم قالت لبيريغرين الذي شرب حتى الثمالة ولم يكن يعي اشارات الغضب عند أخيه :

« تعال، يا بيريغرين، لقد أمضينا وقتاً سعيداً. اما الآن فحان وقت العشاء. »

« تفضلي بالجلوس، يا لورا العزيزة. أردت الخروج معي وستعودين عندما أقرر انا ذلك. »

لم تعد قدماها تحملانها، فاضطرت للجلوس، فقال بيريغرين :

« حسناً! والآن، يا أخي، دعك من التصرف ككلب الحراسة. »

لاحظ دومنيك كمية الكؤوس الفارغة على الطاولة أمامها كما انتبه الى حيرة لورا وارتباكها، فأعلن من دون غضب :

« بما انك أرغمت هذه الفتاة على احتساء الشراب هي التي لم تتعوّد على ذلك من قبل، فانك تضطرني للتدخل في الأمر. ما هو هدفك؟ هل تنوي أن ترميها على العشب في طريق العودة؟ »

صرخ بيريغرين واقفاً وفي نيته أن يختلق مشكلة وشجاراً :

« لكنك تغار! صحيح انك غير محظوظ مع الفتيات! »

أصابه معصم دومنيك في ذقنه، فوقع على كرسيه. لكنه لم يحاول الرد عليه لأن الشراب قد خدّر قواه. فارتاحت لورا للأمر. واكتفى بيريغرين بالقول بصوت ثقيل :

« ستندم على ذلك. نعم ستندم على ذلك! »

لكن دومنيك لم يعره انتباهاً. أما هو ففي سقوطه أوقع كؤوساً ومزهرية كانت تزين الطاولة، وظهرت وراء المزهرية زجاجات الشراب التي كانت قد خبأتها لورا من أمامه. فلاحظها دومنيك وقال :

« لقد قدّرتك أكثر مما تساوين، يا لورا. أنت اذن تدفعينه الى الشراب،

وفي طريقتك الليقة! لنعد الآن. دعيه في دوخته! »

أفرغ دومنيك كأسه في عجلة، ثم وضعه على الطاولة وأخذ لورا خارج الحانة.

ولمّا صعدت الفتاة في السيارة بقرب السائق، قالت:

« ما كان يجب عليك أن تتصرّف هكذا. »

« في الحقيقة، لاحظت أن وجودي أزعجكما. هل كنت تحاولين الوصول الى أهدافك؟ »

وراء لهجته المحايدة لاحظت لورا لمحة مرارة ورمقته بنظرة خاطفة وقالت وقد احمرت وجنتاها:

« ماذا تقصد بهذا الكلام؟ »

« كليوباترا على علم بدسائسك. وانشغل بالها عليك. »

« هل هي من أرسلتك لانقاذي؟ »

أكد لها دومنيك قائلاً:

« في هذه الحانة، آل تريفاين لديهم شهرة واضحة، وليس ممكناً أن يحدث لك شيء. لكن ربما استيقظت في الغد نادمة على ما يمكن أن يكون قد حصل لك. وستكون قضية بيريغرين!... »

هذا المزاج البارد أرعب لورا وتذكّرت كلمات دومنيك لأخيه: « هل تنوي أن ترميها على العشب في طريق العودة؟ » هل جاء الى الحانة بفعل الواجب، ليخلّص فتاة صغيرة حمقاء من المأزق الذي وقعت فيه؟.

امتلأت عيناها دموعاً. يا لهذا النهار! المشاكل تنصب عليها منذ الصباح. كان بامكانها أن تشعر بسعادة، جالسة قرب دومنيك في هذه الامسيات الجميلة من أمسيات الربيع! لكن كبير آل تريفاين أصبح غريباً بالنسبة اليها. لم يحاول قطع هذا الصمت الثقيل. وبدلاً من أن يقود بسرعة بين القرى وعلى طرقات الجبل، كان يأخذ وقته. ولمّا وصلا الى حافة جبل صخري، على الطريق المؤدية الى بانسيون، أوقف سيارة فجأة وقال في لا مبالاة محيّرة:

« لنشاهد غياب الشمس. »

التفت نحو لورا ووضع ذراعه خلفها وهمس قائلاً:

« تبدين متعبة. »

نعم، إنها متعبة حتى الارهاق. والدموع التي تحاول كبتها تهدّد بالسقوط في اي لحظة. يهمها اكثر من اي شيء آخر أن تحافظ على ما تبقى لديها من عزّة نفس.

قالت في جهد:

« النهار كان قاسياً. بين العنف والصراخ... والعراك... والمشاكل... آل تريفاين لا ينفعلون بسهولة لهذه الامور التافهة!... »

هزّ دومنيك حاجبيه وقال:

« عن اي عنف تتكلمين؟ »

« ألم ترتمي عليّ في المكتب؟ كان عناقك من الغضب أكثر مما كان من الحنان ولست أنا سبب ذلك. »

ابتسم واسترخت أسارير وجهه، ثم قال:

« أنت السبب. »

« كلا! »

« بلى. ما كان يجب أن تناديني بالسيد الجشع، هذا اللقب الذي أطلقه اخي عليّ، حتى ولو كنت تمزحين. »

« اذن، أطلب منك السماح، لكن... »

« لكن ماذا؟ »

« أنا... في كل حال... أليس ما فعلته طريقة غريبة لعقابي؟ »

« صحيح؟ أنت تجهلين تماماً ردّات فعل الرجال. »

اعترفت بتواضع:

« وخصوصاً ردّات فعلك أنت. أنت تمرّ بسرعة غريبة من اللطف الى القوة. لا استطيع ان اتبعك. »

« اللطف... هل تعتقدين أن هذا كل ما عندي لأقدمه لك؟ »

لو لم تكن شديدة الاضطراب بفعل انفعالاتها الداخلية، لتأثرت لورا بغرابة هذا السؤال. هذا الحنان الذي لم تكن تأمل به، عادت لتجده من جديد عند دومنيك، هذا الحنان وصوت البحر هدهداها وغمراها في غبطة وسعادة بالغة. فتركت رأسها يرتخي على كتف رفيقها في مثل وداعة

الصغار.

تأمّلها دومنيك فترة طويلة، فلم تلاحظه لأنها أغمضت عينيها. فجأة، أشعل محرك السيارة وقال:

« حان الوقت لنعود. »

وبدلاً من أن يقلع في الحال، ترك المحرك يدور، فشعرت لورا بيده تنسل تحت ذقنها ورفع وجهه نحوها. ففتحت عينيها. وبما أنّ الظلام قد حلّ، لم تميّز تعبيره. انحنى نحوها وعانقها بنعومة رائعة. وقال بلهجة مطلقة خالية من السخرية:

« هذا الشيء أنا قادر أن اقدمه لك أيضاً. »

وحين استعد للابتعاد عنها تعلقت به فقال في استغراب:

« لورا. . ؟ »

كاد أن يجذبها نحوه من جديد، لكن سيارة سريعة مرت قربهما في سرعة كبيرة محدثة ضجة رهيبة دمرت ايقاع هذه الفترة الرائعة والانسجام الذي كان. . .

أعلن دومنيك وهو يتبع بعينيه أضواء السيارة الخلفية التي كانت تتموّج في خطورة على الطريق الضيقة:

« سيصل بيريغرين الى بانسيون قبلنا. »

ثم أقلع السيارة وانطلق.

في الغد، كأن شيئاً لم يكن. لا شيء تغيّر في بانسيون. العلاقات التي يعيشها آل تريفاين مع بعضهم ادهشت لورا حتى الذهول. بيريغرين، هو نفسه لم يتغير، راح يتصرف بغطرسة وخيلاء. ودومنيك، برغم اشارات التعب على وجهه كان يقوم بأعماله كالعادة. وكليوباترا التي لم تظهر على انتكاس مزاج أو ازعاج، كانت تتسكّع في أرجاء المنزل كالعادة.

قالت لورا للخادمة:

« انهم ذوو متانة مذهلة، وأوفياء مع انفسهم. »

وبينما كانت تتكلّم، لاحظت أنها اعتبرت كليوباترا جزءاً من اعضاء عائلة آل تريفاين.

قالت ميريام:

« ألم يخطر ببالك أن كل ما حدث في الايام الأخيرة سببه عنصر غريب؟ »

ردّدت لورا من دون أن تستوعب ما قالته الخادمة:

« عنصر غريب؟ »

« اللطف والنعومة والبراءة والطهارة بامكانها أن تسبّب خراباً ودماراً عند الناس الذين لم يتعودوا عليها. »

« هل أنا مثلاً العنصر الغريب؟ »

أمام دهشة لورا، هزّت ميريام رأسها بقوة، فسقط من رأسها دبوس شعر وقالت:

« طبعاً، الم تلاحظي ذلك من قبل. بالرغم من قدرة كليوباترا على السحر والاغراء، فهي تشبه آل تريفاين كثيراً ولذلك فانها لا تفاجئهم. إنها تعجب بيريغرين وهذا شيء طبيعي، لأن بيريغرين يشبه ترويلوس كلياً. لكن دومنيك لم ينس والدته وأنت تقريباً مثلها. »

أمل كبير ملأ قلب لورا فجأة. غالباً ما تختبىء الحقيقة في تعابير الخادمة الغريبة. فطرحت لورا عليها السؤال الذي سبق أن طرحته على دومنيك:

« كيف كانت والدة دومنيك؟ »

ونالت الجواب نفسه:

« ناعمة ورضية ومتسامحة. . . مثلك، يا ابنتي. كانت تحب أيضاً القصص الخرافية والاساطير وتحلم كثيراً. وزكاري كان يكبرها بالسن ولم يفهمها بتاتاً. وكان عزاؤها المطالعة والشعر وكل ذلك، بفضل دومنيك طبعاً. . . »

« ولما توفيت تأثر كثيراً أحس بوحشتها، اليس كذلك؟ »

« كان عمره ثماني سنوات وكان ناضجاً أكثر من عمره. فتألم كثيراً لفقدها. ولا شك أنّ هو السبب الذي من أجله يشعر بالحنان تجاه نيكولا. »

« نعم. أنت على حق. إنه ينوي أن يربيه هنا. »

« طبعاً! دومنيك لا يريد أن يتألم نيكولا بالحرمان نفسه. كما أنه قلق كثيراً على طباع الولد الموروثة عن والديه. »

« والدته، أيضاً؟ »
« ألا تعتقدين أنّ ابنة عمتك ليست أكثر اتزاناً من ترويلوس؟ »
« أنت لا تحبين كليوباترا، أليس كذلك؟ »
كانت الخادمة تنظر في عينين شاردتين الى ما وراء النافذة وتقول :
« انا لا اكرهها ولا أحبها. في كل حال، ليس لهذا أهمية ما دامت غير باقية هنا مدة طويلة... هل ترين أين سقط دبوس شعري؟ »
راحت لورا تبحث عنه تحت الاثاث وتقول :
« لكن، يا ميريام، أنت تعرفين أنهما... انهما سيتزوجان... من أجل مصلحة نيكولا. »
« آه، لا. ليست هذه مصلحة نيكولا... آه شكراً. هذا دبوس شعري... القارن ليس لها. »
وبهذا الكلام أنهت ميريام هذا الحديث وابتعدت من دون انذار وتركت لورا حائرة وعلامات الاستفهام بقيت مرتسمة على شفتيها. صحيح أنّ ميريام تبدو أحياناً غاضبة...
في اليوم التالي، بعد العشاء، تصرّف بيريغرين مرّة أخرى بطريقة رديئة. كان يحاول من جديد أن يستميل حب نيكولا باستعماله شتى الطرق. غير أنّ الصبي رفض الاقتراب منه. وكلّما أصرّ بيريغرين عليه، ازداد تعلقاً بأحضان دومنيك. اخيراً، أمر هذا الأخير أخاه أن ينتهي من هذه المسرحية فقبل بيريغرين من دون طيبة خاطر، معلناً فشله، لكن الوضع تفاقم عندما راح نيكولا يصرخ عالياً :
« إني أكره عمي بيريغرين! إنه شيطان، ويقول آموس إنه سيذهب الى الجحيم. لم يعد حصاني! »
قهقهت كليوباترا بأعلى صوتها، لكن بيريغرين تصرّف مثل ولد مراهق، اذ لم يكن يسمح لنفسه أن يعامله أحد بهذه الطريقة التافهة أمام الكبار. فرمى بفنجانه على رأس الصبي لكنه لم يصبه وراح نيكولا يختبىء في أحضان دومنيك صارخاً برعب.
صرخ دومنيك وهو يداعب رأس الولد :
« كفى يا بيريغرين. أنت تتصرف كأبله! »

نهض بيريغرين وخرج من الصالون كالمجنون ولحقت به كليوباترا.
لامت لورا نفسها لصمتها. أليست هنا للاهتمام بنيكولا. غير أنها لم تكن تستطيع القيام بأي حركة واكتفت بالنظر الى دومنيك. ولاحظت في اندهاش أنه يعرف كيف يعامل ابن اخيه مستعملاً اللطف والقسوة في آن واحد. وارتاحت وهي تقول لنفسها، إن نيكولا بين أيد أكيدة.
ولمّا حان وقت النوم، رفض نيكولا الذهاب الى فراشه. طلب من عمه أن يقص عليه حكاية. وفطنت لورا الى أنّ دومنيك سيغتنم هذه الفرصة ليلقن الصبي درسه الاول ويعلمه الطاعة. لذلك أسرعت في التدخل قائلة :
« لا تفسد الأمور، يا دومنيك. ما زال أمامك الوقت كلّه لتعلمه الطاعة والأدب. لقد حصلت لتوك على حبه وعطفه، ولهذا يستحق بعض الاستثناء. »
قطّب دومنيك حاجبيه في البداية ثم انتهى بالابتسام وحمل الولد على كتفيه وتوجه به الى غرفة النوم.
وبعد قليل صعدت لورا لتأخذ مكانه وتجلس قرب نيكولا. فرأتهما ممددين على صدريهما في أرض الغرفة يبنيان قصراً من ورق اللعب. كان كلّما بنى دومنيك جداراً، نفخ نيكولا على الورق ثم صرخ بفرح كلّما سقطت الاوراق. أعلن دومنيك وهو ينهض واقفاً :
« لن أتوصل أبداً الى الانتهاء من بناء القصر. الريح الشمالية تعصف بشدّة وتدمّر قصري في استمرار. »
قال نيكولا متطلباً :
« اذن عليك الآن أن تقصّ عليّ حكاية. »
أجابه وهو يريد أن يكلّم لورا التي دخلت لتوها :
« لحظة. »
أصرّ الصبي وهو ينتفض بفارغ صبر :
« حكاية! »
أخيراً حمله دومنيك وأجلسه على الاريكة وجلس قربه وقال :
« إني أقترح أن تقص علينا مومو حكاية صغيرة. »

جلست لورا مقابلتها وبدأت تقول :

« كان ما كان، في قديم الزمان. . . »

راح دومنيك يتأملها في حنان. جلست كعادتها، مكتفة اليدين مثل تلميذة مدرسة. هكذا جلست على الكرسي أمام المدفأة. وكان دومنيك مسحوراً بخصلات شعرها الناعمة وعينيها الواسعتين. ولم يكن يعير انتباها شديداً لمحتوى القصة. كانت القصة تروي سيرة حياة أمير مسكين، قبيح لم يكن له حظ مع النساء ومع الحب. زوجته الاولى هربت ليلة عرسها وكذلك زوجته الثانية. أما الثالثة التي هي أذكى من الاثنتين، فنجحت بأن تنقذه من القدر السيء الذي كان مسجوناً بداخله.

ولما وصلت إلى نهاية القصة، شعرت لورا بانزعاج بسيط وانهت القصة بسرعة واحمر وجهها. لكن نيكولا كان وقحاً وسألها محتجاً :

« لم تقولي أن زوجته الثالثة قبلته رغم بشاعته، يا مومو. هذا أهم شيء في القصة ! لو لم تقبله لما تخلّص من قدره السيء. »

تلعثمت لورا وتحاشت نظرات دومنيك وقالت :

« نعم. . . نعم. . . »

ومن جهة، تساءل دومنيك إذا لم تكن هذه الفتاة الناعمة قد أرادت عن قصد أن تتحاشى التفاصيل لئلا تشير إلى كدماته فقال :

« لم تكن مومو على حق في اختصار نهاية القصة. كانت تخشى الأ تجرح شعوري. »

قال نيكولا :

« بسبب آثار الكدمة في وجهك ؟ »

« في البداية، كنت تعتبرني انساناً قبيحاً. أليس كذلك، يا نيكولا ؟ »

« لكن لما عرفت أنك قاتلت مثل القرصان، اختلف الأمر كلياً. أنت حصاني . . . لا تنس ذلك. »

بدأ هذا الكلام يحدث عند الطفل بعد الملل، فراح يتسلى بلعبة صغيرة حصل عليها كهدية عيد الفصح. فقال دومنيك بفارغ الصبر :

« آه، يا لورا ! »

فحاولت الابتسام وقالت معترفة :

« لقد تصرفت مرّة أخرى مثل فتاة تائهة. لا أعرف لماذا وجدت علاقة بين هذه القصة والكدمة في وجهك. في كل حال هذه الكدمة تعطيك جاذبية القرصان. »

قهقه دومنيك وقال :

« أنت فتاة رائعة ! »

« رائعة ؟ »

« هل هذا التصريح يدهشك ؟ إني أتساءل ما إذا كنت مخطئاً في بعض وجهات النظر. »

كان يتكلم بغموض لم تفهم حقيقته، فأزاحت نظرها لتتأمل المنظر من خارج النافذة. إن كومة الانقاض التي تضيئها شمس المغيب. كانت ذات جمال غير اعتيادي. فقالت :

«أنظر ! هذه الانقاض المرعبة تبدو وكأنها أبراج قصر مسكون ! »

نظر صوب الأنقاض وهو يشعر باضطراب. لقد غيّرت الموضوع بلباقة وذكاء. انتبه بانفعال غريب، فأمسك بمعصم لورا وأرغمها إلى النظر إليه وقال :

« أريدك أن تبقي ! انسي ما قلته البارحة. »

راحت تتأمله وتقول :

« كنت غاضبة. سأبقى، طبعاً. ما دامت كليوباترا في حاجة إليّ. »

«شكراً. لقد وصلت ابنة عمتك الى اتخاذ قرار نهائي، على ما أظن. »

« هل نجحتما في الاتفاق ؟ »

« أعتقد ذلك. »

اخفضت لورا رأسها غير قادرة أن تتحمل نظرة دومنيك الزرقاء، وأطلقت زفرة طويلة. غاب السحر عن المنظر. ومن النافذة رأت روبلي الكلب المسن، يجرّ قدميه في ساحة المنزل :

فأعلن دومنيك قائلاً :

« هذا الكلب المسكين لن يعيش طويلاً. »

فارتعشت لورا فقال دومنيك باستغراب وحنان :

« أنت فتاة حساسة، حساسة جداً ، الحياة والناس سيجرحون شعورك

إذا لم تخشوشني. »
أجابت وقد تأثرت بحدسه واستبصاره :
« مثلك ؟ »
« أنا، عليّ أن أفعل عكس ذلك تماماً. في كل حال، مساء أمس، عندما عانقتك، ردّة فعلك دمرت كل دفاعي. »
لامته قائلة :
« لا يجب أن تتكلم عن هذا. لا أعرف ما الذي جرى لي. »
« صحيح ؟ ألم أكن اذن بديلاً عن بيريغرين ؟ »
قال هذا الكلام في لهجة مترفعة حتى أنها لم تلاحظ أي تخوف سينتابه وهو ينتظر جوابها.
لكنها تذكرت انذارات كليوباترا، واعتقدت أنه يعطيها الفرصة لتعتذر عن تصرفها، فقالت :
« ربما. من الأفضل أن اهتم الآن بنيكولا. حان الوقت كي أضعه في فراشه لينام. »
وفي لحظة البرق، تغيرت ملامح دومنيك وتعابير وجهه كلياً. نهض ونظر إليها لحظة سريعة من فوق. استحال الرجل القاتم الغريب، المتكور خلف درعه. مدّت لورا يداً مترددة لمحاولة إيقافه، لكنه استدار في حدة وغادر الغرفة.
هذا الأسبوع، أسبوع العطلة الذي انتظرته لورا في أمل وحماسة لم يختلف كثيراً عن بقية الأسابيع. فبيريغرين يمضي معظم أوقاته خارج المنزل، يعمل في ممتلكاته من وقت إلى آخر، لكنه كان يفضل أن يلهو في الحانات حيث كانت ترافقه كليوباترا أحياناً. وفي غالب الأحيان كانت تبقى في بانسيون، منكمشة على نفسها، هادئة في صورة مدهشة وحالمة وليس هذا من عادتها. ولم تكن تفرح بمناكدة ابنة خالها. الانسانة الوحيدة التي ظلّت على طبيعتها هي الخادمة العجوز، ميريام. لا شك أنّ خبرتها في الحياة والسنوات الطويلة جعلت الحوادث لا تخترقها.
واكتفت لورا برفقة نيكولا. لا أحد فكر في أن يقترح عليها القيام بنزهة حول المدينة وجوارها. وزيادة بالشؤم، كان الطقس على أسوأ ما يكون.

فكلّما خاطرت بالخروج في نزهة قصيرة مع الصبي، كان المطر يطاردهما. وبعد تجارب تعيسة من هذا النوع، انتهى الأمر بنيكولا أن قرر الرفض وعدم الخروج.
وذات صباح، التقت لورا صدفة بدومنيك في ساحة المنزل، وتسلحت بالشجاعة لتقول له كل ما يدور في أعماق تفكيرها :
« اعتقدت أن إغلاق المقلع خلال العطلة سيعطيك المجال للتمتع بأسبوع إجازة ؟ »
كان واقفاً أمامها، طويلاً، قوياً وممشوقاً. شعرت لورا بانسحاق لطيف أمام القوة التي تصدر عنه. فقال شارحاً ومبتسماً :
« هذه العطلة هي للعمال أكثر مما هي لأصحاب العمل. يا لورا المسكينة، هل تحلمين بالذهاب إلى التسوق في المدينة، أو بالقيام برحلة في الهواء الطلق ؟ »
« أفضل اكتشاف المنطقة. أنا هنا منذ شهرين ولم أخرج تقريباً من هذا المنزل. »
أجاب بلهجة ساخرة :
« بإمكان بيريغرين أن يتطوّع لإخراجك ! العمل لا يمنع تحقيق ذلك ! »
« إنه يفضل رفقة كليوباترا. »
« آه ! وهذا ما يزعجك ! ابنة عمتك تناسبه أكثر منك. لو كنت مكانك لاستسلمت لهذا القدر. »
وللحال ابتعد عن لورا. فوجئت الفتاة وظلت تنظر إليه حتى توارى داخل المستودع. هل يعتقد أنها تغار من كليوباترا ؟ وهو، هل هو منزعج من اهتمام كليوباترا بأخيه ؟
صرخت تقول :
« انا في حالة الوصول إلى الجنون، هنا ! »
سألها دومنيك وهو خارج من المستودع وبيده بعض الأدوات :
« كيف نجن ؟ صحيح يا لورا عليك أن تقلعي عن عادة التكلم بصوت مرتفع. ستفضحين نفسك يوماً من الأيام ! »

وعلى أثر هذا الكلام، اختفى وهو يترنم بأغنية معروفة.

عادت لورا الى المنزل وداعبت الكلب رويلي في طريقها إلى غرفتها. صعدت السلالم ولاحظت أن باب غرفة كليوباترا مفتوح. فخاطرت بالدخول. كانت المرأة تخرج كل ملابسها من الخزانة وترميها أرضاً سألتها :

« ماذا تفعلين ؟ »

« أحضر لك عملاً، تقصير ملابسي، تنظيف... أغراضي أصبحت خرقاً... »

فقامت لورا في الحال بتحويل الملابس إلى كدس مرتبة.

لامتها لورا في سهولة :

« كان بإمكانك أن تعطيني ملابسك الواحد بعد الأخرى بدلاً من أن تدعيها تتكدس هكذا».

«من أين تريدينني أن أبدأ ؟ »

أجابتها كليوباترا في وقاحة :

« اني بحاجة إليها جميعها. سأغادر بانسيون عما قريب. »

« متى ؟ »

« بعد أسبوع تقريباً. هذا يتعلّق بأمور كثيرة. »

فكرت لورا في حزن وقنوط، لا شك أنّ الأمر يتعلق بدومنيك

« اعلميني بموعد ذهابك متى تحدّد. أريد اعلام صاحبة المنزل حيث كنت أظن أن تحجز لي غرفة صغيرة واني بحاجة الى بضعة أيام لانذارها بالأمر. »

« آه، أنت أيضاً ستغادرين ؟ »

« بالطبع. هل ستحتاجين إليّ لأهتم بنيكولا خلال رحيلك. »

« كلا. سيبقى هنا. »

جلست لورا على السرير وقد خارت قواها فجأة. عرفت ان كليوباترا ودومنيك قد عقدا مساء أمس اجتماعاً سرياً لمناقشة الوضع ولا شك أنهما توصلا الى الاتفاق.

قالت كليوباترا :

« قال لي دومنيك إنك ستبقين هنا للاهتمام بنيكولا. »

« نعم، بقدر ما يكون وجودي ضرورياً. »

« إذن، اتفقي بهذا الأمر مع دومنيك. »

تنفست لورا الصعداء وقالت :

« كليوباترا، هل حققت امنياتك. هل أمّنت مستقبل نيكولا ؟ »

« نادراً ما تأخذ الأمور الطريق الذي نتمنى أن نسلكه، لكني اشعر برضى. نعم، لم يعد لمستقبل نيكولا أي مشكلة. »

سألت لورا وحلقها مضغوط، متأكدة من أن جواب كليوباترا سيبدّد كل الأوهام ويعلن نهاية أحلامها.

« وماذا عن مستقبلك ؟ »

ظلت كليوباترا شاردة الذهن وقالت في ابتسامة ناعسة :

« كل حياتي، تعوّدت أن أترك قدري للصدفة، وهذا أفضل. »

« إذن، لن تعودي إلى بانسيون ؟ »

« طبعاً سأعود، يا ابنة خالي الساذجة. اني أعرف تماماً ما بداخل افكارك. لا، لا، لا تفرحي بسرعة ! »

كان ذلك شديد الوضوح. ستخيّب كليوباترا الوقت اللازم كي تهيء نفسها نهائياً للعيش هنا. عضت على شفتيها وخرجت من الغرفة حاملة كتلة الملابس المطلوب اصلاحها.

١٠- الشروق الوردي

شارف أسبوع العطلة على نهايته وما زالت لورا خائبة الأمل. لن تحمل معها حتى ذكرى نزهة جميلة عندما تغادر هذا المكان وهذه المنطقة.

سألت دومنيك :

« ألا يمكنك. . . ما دمت سأغادر عمّا قريب. . . أن تصطحبني على الأقل إلى المقلع ؟ »

« تغادرين ؟ اعتقدت أنك قبلت البقاء هنا ! »

« كنت سأبقى بقدر ما تحتاج كليوباترا إليّ. لكن ما دامت سترحل. . . »

« هي التي قالت لك هذا الكلام ؟ »

« نعم. وقالت لي أيضاً أنها ستعود. »

« أفهم الآن. . . لكن نيكولا سيكون في حاجة إليك على الأقل في غيابها. »

« دومنيك. . . »

قاطعها بجفاف :

« دعي العذاب في أمور لا تتعلّق بك. أنا أتكل عليك في الاهتمام بالصبي والسهر على راحته وصحته وحاجاته إلى أن تتخذ كليوباترا الإجراءات النهائية. »

ظهر بريغرين فجأة وقال :

« كم أنتِ حزينة. وللأسف لم يسلّك أحد في هذه الأيام الأخيرة ! غداً سأصطحبك لزيارة المنطقة. ما رأيك ؟ »

لم تكن لورا تتمنى قضاء النهار برفقة بيريغرين. فمنذ حادث الحانة بدأت تتحاشى تصرفه الغريب. همست تقول :

« لا تقلق عليّ ولا سبب لتعذّب نفسك من أجلي. أفضلّ، في جميع الأحوال، رؤية المقلع قبل الرحيل، وهذه ليست شيئاً بالنسبة إليك. »

« ولِمَ لا ؟ بإمكاننا اصطحاب نيكولا معنا. ربما يصار إلى ايجاد فرصة كي استميل حبه من جديد. »

قبلت لورا عرضه في حماس، شاعرة بالأمان لوجود نيكولا. وفي صباح الغد، قال بيريغرين لكليوباترا وهو في طريقه إلى المقلع :

« تعالي معنا، يا عزيزتي. »

كادت أن تقول نعم عندما أضاف :

« فكري في الأمر ملياً. الرقم ثلاثة ليس رقماً جيداً. وربما مرض ابنك مرّة أخرى. »

قالت في غضب :

« إذن، لماذا تدعوني لمرافقتك ؟ »

في هذا الوقت بالذات لم يعد للورا رغبة في الذهاب. إضافة إلى ذلك بدأ نيكولا يسبب بعض الصعوبات. فهو يريد أن يتنزه مع عمه دومنيك وليس مع بيريغرين.

قالت كليوباترا باحتقار :

« لا أرى ما ما يمكنني فعله في المقلع. »

أجاب بيريغرين:

« وأنا كذلك. لكني سأغتنم الفرصة لاستمالة عطف نيكولا، من جديد. »

جلست لورا منزعجة في السيارة قرب الصبي الذي كان يحتجّ ويعارض، ثم اقترحت على كليوباترا في خوف قائلة:

« تعالي، يا كليوباترا. »

« آه، لا! سبق أن قال بيريغرين ان الرقم ثلاثة ليس رقماً جيداً. فضلاً عن أني سأغتنم فرصة غيابك لأعجل في إتمام أموري. »

تبدّدت مخاوف لورا لدى وصولها الى المقلع. فقد سحرها المنظر وخاصة الآلات الجامدة التي تشبه الهياكل وكذلك المباني الصامتة.

أعلنت قائلة:

« كأنها مملكة الموت، كأنه عالم ضائع. »

انفجر بيريغرين ضاحكاً وقال:

« يا لهذه المخيلة! في الأيام العادية ليس للمقلع هذا المنظر. ولدينا هنا كل وسائل الراحة. اتبعيني، دعيني أريك كل ما ترغبين به. »

تركا نيكولا يلعب ودخلا إلى منزل مبني من الخشب.

« هذا جناح الراحة وأغطيته. لا ينقصهم شيء. هل تحبين قضاء ليلة هنا؟ خلال أيام العطلة، تستخدم هذه الغرف للقاءات سرية. »

أراد بيريغرين من دون شك أن يعاكسها. فقررت أن تجهل ما يلمح إليه وقالت بهدوء تام:

« أعتقد أن الوقت قد حان للعودة. الضباب بدأ يتكاثف. »

وبدت على شفتي بيريغرين ابتسامة سيئة. فأضافت شاعرة بعجلة في العودة إلى بانسيون:

« سآتي بنيكولا. لا شك أنه يشعر بالبرد. »

«لا، سأذهب أنا مكانك. وبينما تنتظرينني، يا لورا الجميلة، سأقفل عليك الباب خوفاً من ان تقعي في حفر المقلع العديدة. سأعود إليك بسرعة. »

ولما أفاقت لورا من دهشتها، كان قد أقفل الباب وراءه بالمفتاح. أسرعت الى النافذة وشاهدته يتوجه نحو الساحة. لماذا يلعب معها هذا الدور التافه؟ لم تكن خائفة تماماً، لكن الضباب تكاثر بسرعة هائلة. وآن وقت العودة في الحال.

عاد بيريغرين حاملاً نيكولا الذي جنّ رعباً والذي ارتمى في احضان لورا وراح يبكي. فسألته:

« لماذا اغلقت الباب بالمفتاح من جديد؟ كفى مزاحاً. لنعد الآن. »

أسند بيريغرين ظهره على الباب وراح يحدّق فيها بقوة وقال:

« ليس هذا مزاحاً. سنبقى هنا. »

قالت رافضة أن تدع الخوف يحتلها:

« ما بك يا بيريغرين. علينا أن نسرع! اذا تأخرنا فسيكون سلوك الطريق خطراً في هذا الضباب الكثيف. »

« صحيح. الحظ يحالفني. هذا الضباب غير المنتظر يخدم مخططاتي. »

في هدوء تام، مدّدت لورا نيكولا على أحد الأسرة وغطته ثم التفتت الى الرجل، مكتفة الذراعين مثل ممرضة مستعدة لحماية طفل عهد به اليها.

« لا يمكنك أن تأسرنا هنا! »

« لكن هذا ما كنت أنوي فعله، حتى ولو لم يكن هناك ضباب. »

« لكن لماذا... لماذا؟ ماذا تأمل بذلك. هل تريد أن تجعل كليوباترا تغار... لا، لن تتوصّل الى ما تريد. »

« هل تعتقدين ذلك؟ لابنة عمك كل الاسباب كي تغار منك. »

« ما تقوله أشياء تافهة وحمقاء. كفى تسلية يا بيريغرين، لنعد الآن. »

« ليس وارداً، يا عزيزتي. »

فجأة أصبح تعبير وجهه تهديداً واضحاً فاقترب منها ودفعها على أحد الاسرة وقال:

« الم أقل لأخي الكبير، السيد الجشع، انه سيندم على ما فعله بي، تلك الليلة عندما اصطحبتك الى الحانة؟ فانتظرت بصبر الوقت المناسب للانتقام منه. فكرت أين اختفي مع نيكولا بضعة ايام، لكنك برهنت الآن عن امكانية أفضل. لن يقلق بال دومنيك الا ليلة واحدة، لكن أي قلق

سيكون عندما تكون عفة فتاة في خطر. . . »

ابتعدت لورا عن طرف السرير. لم يكن بيريغرين يمزح وبدت متأكدة تماماً من ذلك. غير أنها لم تستسلم للخوف وقالت باحتقار بارد :

« نحن الآن في خضم المأساة، وكل ذلك لأنك تريد الانتقام ! »

قال ساخراً :

« من الآن حتى نهار غد ستفقدين هذه الهيئة المتعالية، يا ابنتي. »

قالت وهي تنظر اليه بملء عينيه :

« اذن، أنت حقاً تنوي اغتصابي ؟ »

لو سمعتها العمة فلورا لانتابها الذعر. وأمام هذه الفكرة احمرّت وجنتا الفتاة غضباً عنها.

« آه، انت تحمرين برغم ذلك ! سيندهش السيد الجشع من أسلوب نعجته البيضاء ! »

راحت توبخه وتقول :

« لا تناده بهذا اللقب ! أنت تتصرّف مثل مراهق يغار من أخيه الكبير. لقد نجح دومنيك في استمالة عطف نيكولا وحبه. وما عليك الاّ قبول الامر الواقع والاستسلام ! في كل حال لن يقلق على الولد لأني موجودة معه. »

جلس بيريغرين على السرير قرب لورا وراح يرمقها بنظراته الجاحدة، ثم قال :

« اذن لم تفهمي شيئاً. سيقلق دومنيك عليك أكثر من قلقه على نيكولا ! أنا خطفت الشخصين العزيزين على قلبه، أكثر من أي شيء في العالم. أليس هذا رائعاً ؟ في ليلة واحدة سيدفع ثمن كل الاهانات التي كبدّني اياها. »

لم تتحرّك. واضطرت الى ضبط تنفسها بينما كان بيريغرين يتكلم ثم اطلقت زفرة مرتجفة من شفتيها فقال مستغرباً :

« ألم تشكّي حقاً بأي شيء. الست امرأة كما يجب تتمكن من كشف الحب الذي يخفيه وراء تصرفاته كرب عائلة غيور ؟ »

أجابت في توتر حتى نسيت الوضع المتأزم الذي وُجدت فيه :

« انه يعاملني كابنة صغيرة. كنت أعتقد العكس، انه. . . يمل من عواطفي تجاهه. ولقد حذّرني. . . »

« حذّرك ضدي، أنا أكيد من ذلك. لقد أقنعته كليوباترا أنك مغرمة به. »

انتصبت لورا متعبة ومذعورة. أخيراً بدأت الامور تنجلي وتتوضّح ! الدفاع الذي حدّثها عنه ! بريق العواطف الذي اعتبرته لطفاً فحسب ! كانت استطاعت معرفة كل شيء منذ البداية لو لم تقم كليوباترا بتضليلها. خيانة ابنة عمتها تؤلمها.

وكأن بيريغرين قرأ ما يجول في خاطرها فقال :

« كلا، يا عزيزتي. ليست كليوباترا عميلة، هذه المرّة. لا شك أنها كانت تشعر برغبة في أن تنتقم هي أيضاً من دومنيك لأنه رفض الزواج منها، لكنها لا شك تفكر بمشاريع اخرى. لو كانت ذكية لجعلته يوقع الليلة على صفقة رابحة فيدفع لها مبلغاً معيناً. وأنا ربما كرست نفسي لأن آخذها معي الى المذبح لنعقد زواجنا. هل أنت راضية الآن ؟ »

قالت في عنف مفاجىء :

« علينا أن نعود ! والاّ فسيأتي دومنيك بنفسه لأخذنا. ستقول له كليوباترا أين نحن الآن. »

اطلق بيريغرين ضحكة واسعة وقال :

« الا تشاهدين حالة الطقس ؟ يكون مجنوناً من يجرؤ على الخروج. دومنيك محكوم عليه أن يترك حبيبته برحمتي. »

نظرت لورا من النافذة واكتشفت رداء سميكاً أبيض ملتصقاً بالزجاج فقالت وهي تقف لتذهب قرب نيكولا :

«حسناً. سنقضي الليلة هنا، اذن. »

أعلن بيريغرين في فرح :

« لن نموت جوعاً، فقد اصطحبت معي سلة مليئة بالمأكولات وهي داخل صندوق سيارتي. »

هذا التفصيل أزعج لورا كثيراً، فاقتربت من بيريغرين وصفعته وقالت :

« بامكانك أن تسخر مني ومن قصصي حول القراصنة، لكنك، أنت وانتقاماتك الرديئة، دلالة على أنك ما تزال تعاني من أمراض المراهقة ! »

وضع بيريغرين يده على خده وقال في هدوء رهيب :

« ستندمين على ما فعلته الآن. لدي الليل كله حتى أدفّعك الثمن. »

في بانسيون بدا النهار طويلاً ومملاً. تصرفات بيريغرين الغريبة ايقظت الشكوك في نفس كليوباترا، لكنها ظلّت رافضة أن تدخل في اللعبة. سيكون بيريغرين فرحاً اذا توصّل لأن يجعلها تغار منه. كانت تعرف أنه قادر على اغراء لورا فقط من أجل أن يخلفها مع دومنيك.

عاد دومنيك الى المنزل في الساعة الخامسة والنصف. قطّب حاجبيه عندما عرف أن المتنزهين لم يعودوا بعد.

« آمل الا يتأخروا في العودة. فالضباب بدأ يلف الجو. »

أجابته كليوباترا :

« لا شك أن بيريغرين يقود سيارته ببطء، على غير عادته . »

بما أنها لم تتعود على العيش في القرى والاماكن الصغيرة، فانها تجهل مخاطر الطرقات التي لا ضوء فيها، خاصة على حافة الجبل الصخري. ومع مرور الوقت بدأ القلق يدخل الى قلبها. ولم تكن تخشى وقوع حادث مثل دومنيك. كانت متأكدة الآن أن بيريغرين قرر الانتقام، ليس فقط من أخيه، بل منها أيضاً هي التي قررت الزواج منه.

في السابعة، تخلّى دومنيك عن ممارسة مهماته وراح يمشي ذهاباً واياباً حتى وصل الى الباب الخارجي واخيراً اقترحت كليوباترا عليه :

« لماذا لا تتصل هاتفياً بالمقلع ؟ » -

« حاولت من دون جدوى »

« انهم في طريق العودة، اذن »

« كلا. وأنت تعرفين ذلك جيداً. »

« لو كانوا ما يزالون هناك لردّ أحدهم على الهاتف. نيكولا يجب الرد على الهاتف. »

« ليس بالضرورة. الهاتف يقع في المكتب وفي المقلع غرف مريحة أكثر لقضاء الليل».

« أنا اكيدة أن بيريغرين كان قد اتصل بنا لو أنّ الضباب هو المانع. »

« هل تعتقدين ذلك ؟ »

ران صمت ثقيل بينهما. كان دومنيك يمشي طولاً وعرضاً في أنحاء الصالون. فجأة توقف أمام كليوباترا وقال :

« ألا تعتقدين أنّ الوقت قد حان للكلام ؟ »

همست لتربح بعض اللحظات :

« لا أفهم ».

قال دومنيك في برود :

« أنت تضيّعين وقتك. مهما حصل في هذه الليلة، فلن تتغيّر حقيقة مشاعري. »

شعرت كليوباترا بألم حاد لاكتشاف هذا الحب الكامل الذي لن تعرف مثله ابداً.

« طبعاً ستأخذ بقايا بيريغرين كما كنت مستعداً أن تأخذ بقايا ترويلوس ! »

صفعها دومنيك على وجهها وقال :

« هذه هي اللغة الوحيدة التي تفهمينها. والآن، اسمعيني. مساء أمس وصلنا الى اتفاق في ما بيننا. ستكلين نيكولا اليّ وسيكون في عهدتي لقاء مبلغ من المال. أنا مستعد ايضاً لأن اعطي بيريغرين حصته من هذه المؤسسة، لكن ابتداء من نهار غد، ستغادرين منزلي، هل فهمت ؟ . . . ماذا هناك، يا ميريام. »

ارتعبت كليوباترا من عنف دومنيك ورحبت بقدوم ميريام. التي قالت من دون مقدمة :

« هدئي أعصابك، يا عزيزتي، لن يعودا هذا المساء. »

قضى دومنيك ليلة مرعبة ولم تتركه ميريام لحظة واحدة. بل ظلّا ساكتين ولم يفكرا بكليوباترا التي صعدت الى غرفتها. ذلك أنها لم تعد تنتمي الى عالمهما. وفي الخامسة صباحاً قال دومنيك معلناً :

« الضباب يخف، وبامكاننا الذهاب الآن. »

وكانت ميريام تريد أن تقترح عليه مرافقته الى المقلع،

فقالت :
« سأتولى أمر الصبي لأنه سيكون لديك أشياء أخرى تفعلها. »
أجابها بحنان :
« يا عزيزتي ميريام، لا شيء يفاجئك مطلقاً. لا شك أنك تلومينني بسبب جهلي وعماي ! »
« نعم، أحياناً ألومك، لكن يجب دائماً أن يتحلى المرء بالثقة . »
لمّا وصلا الى المقلع، أطلق دومنيك بوق سيارته فظهر بيربغرين أمام الباب في الحال قائلا :
«وصلت متأخراً ! »
صرخ دومنيك الذي غادر سيارته على الفور :
« أين هما ؟ »
اشار بيربغرين برأسه الى داخل البيت وأجاب :
« هنا. ينامان. لا توقظ نعجتك. عليها أن تستريح بعد هذه الليلة المضطربة. إنها. . . »
امسك دومنيك بياقة قميص أخيه بعنف جعله يتوقف عن الكلام وقال له :
« من زمان وأنت تحاول ايجاد مبرر للعراك. ستحصل عليه الآن. »
قال بيربغرين في سخرية :
« التاريخ يعاود نفسه. المكان نفسه والوضع نفسه. . . »
« نعم، لكن هذه المرة ستعارك من دون غش وخداع. دافع عن نفسك، يا بيربغرين ! »
دفع دومنيك أخاه الى الوراء وفوجىء اذ لمح الخوف في نظرته السوداء فأعلن قائلاً :
« كلا. لن أتعارك معك. »
اختفت كل وقاحته.
« هل تشعر بضعف حيال اللحظة الحاسمة ؟ »
« كلا، لكن نعجتك البيضاء ربحت معركة . »

في الوقت نفسه كان دومنيك قد صفعه بعنف ورماه ارضاً.
ثم قال لانه لم يستوعب في الحال معنى كلام اخيه :
« قل ما قلته مرّة ثانية. »
« كنت أقول انه سبق أن خسرت. أسألها أنت بنفسك، ها هي ! »
التفت دومنيك ورأى لورا واقفة على عتبة البيت مكللة بهالة الفجر الوردية. فقد استيقظت في فستانها المرهق وشعرها المشعث وعينيها الكبيرتين الثقيلتين نعاساً، فكانت تشبه فتاة صغيرة.
« لورا ! »
بدت وقد استيقظت تماماً لدى سماع صوته وعاد اللون يملأ وجهها من جديد.
فاعلنت بهدوء :
« كل شيء على ما يرام، يا دومنيك. لا تتعاركا. »
صرخ بيربغرين الذي ما يزال ارضاً :
« هل رأيت ! نعجتك عرفت كيف تدافع عن نفسها. لم تطلق النحيب ولا النجدة. . . بل انهمرت عليّ بدروس الاخلاق والوعظ وكانت بذلك قادرة أن تجعل اي انسان يغيّر نواياه السيئة ؟ ماذا تنتظرين للارتماء بين ذراعيه يا آنسة سميث. الم يأت لنجدتك ؟ »
لم تكن لورا تنظر الّا الى دومنيك فانتابها الغثيان وأخفت وجهها بين يديها.
وقف بيربغرين وربت على كتف أخيه وقال :
« لا تكمل العراك. لقد أوضحت لها الامور ولا شك أن كليوباترا فعلت الشيء نفسه معك، لكنها لم تسمع بعد من فمك أنك تحبها. . . حسناً، سأترككما، فأنا في حاجة لتغيير الجوّ. الى اللقاء. »
ابتعد بسرعة وعكر هدوء الصباح بضجيج محرك سيارته. انها الأشارات الاخيرة لانتقام بيربغرين.
عاد الصمت من جديد الى المقلع. دخلت ميريام الى المبنى في هدوء غريب. أما لورا، فظلت من دون حراك. اقترب دومنيك منها وأخذها من

خصرها وقال في تردد :

« لورا. . . ؟».

رفعت عينيها نحوه وقالت :

« هل قلقت كثيراً هذه الليلة. »

« نعم، لأنك عزيزة عليّ. »

« اذن، هل صحيح أن. . . ؟».

« انني احبك ؟ نعم، صحيح. هل أنت صعبة الاقتناع ؟ »

« آه، لا ! يؤمن المرء دائماً بما يتمنى من كل قلبه. »

ضمها دومنيك اليه وقال :

« كم كنا عمياناً، يا حبيبتي ! »

« أنا لدي اعذاري، لأنه لم يسبق ان كان عندي تجربة في الحب. أما انت، يا دومنيك تريفاين، سيد بانسيون، فكان يجب عليك ان تعرف ذلك. »

« في الواقع، على السيد الجشع ان ينال كل ما يرغب به من دون الاهتمام بالغير، أليس كذلك ؟ »

« في البداية فقط، كنت أعتبرك سيداً جشعاً. »

« كلا، في البداية، كنت تعتبرينني الشيطان بعينه ! »

وضعت اصبعين على شفتي دومنيك وقالت :

« هل ما زلت تعاملني كفتاة صغيرة ؟ »

غموض غير منتظر ظهر على وجه دومنيك المتعب وقال :

« كلا، يا حبيبتي، لكن دفاعي لا يسقط في لحظة واحدة و. . . ستبقين مطولاً الفتاة الحنونة التي أحببتها دائماً. »

ارتمت بين ذراعيه ومنحته قلبها. ولما أبعدها عنه، كانت الشمس تشرق من وراء المقلع جاعلة المركز الصناعي في منظر جميل.

قال دومنيك :

« انظري ! »

لكن لورا لم تقدر أن تزيح نظرها عن عينيه الزرقاوين وكعادتها فكرت بصوت مرتفع، قائلة آخر ما ورد في اسطورة حصان القارن :

« عندما لمح القارن الفتاة العذراء، اقترب منها، فدعته يتلقفها. . . »